طه حسين

رحلة الربيع والصيف

دار العلم للملايين - بيروت

طه حسين

رحلة الربيع والصيف

دار العلم للملايين
بيروت

بيروت ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧

رحلة الربيع

١

وقفت السيارة عند أصل القلعة ، وفي الوقت نفسه أقلعت السماء ، وسكت الغيث ، وأقبلت أشعة هادئة فاترة تنبىء السحاب في رفق عذب بأن الشمس تريد أن تزور مشرق الحكمة ، فينقشع السحاب خفيفاً رشيقاً ، وتقبل الشمس في أناة ووقار وجلال فتغمر القلعة بنورها كأنما تضمها إليها في حب وحنان . ونصعد نحن في أثناء ذلك وقد استحضرنا عقلنا كله وحسنا كله وشعورنا كله فقطعنا كل ما كان بيننا وبين العالم من صلة وأخلصنا نفوسنا للقلعة نريد أن نلتهمها حباً لها وإعجاباً بها وفناء فيها .

وقضينا في القلعة ساعتين عشنا فيهما ثلاثة قرون كاملة ، فاعجب إن شئت لثلاث مائة سنة تختصر في ساعتين ، فهذه خصلة خص بها الإنسان تتيح له أن يختصر الزمان إن شاء أن يختصره ، وأن يتجاوز الزمان إن أراد أن يتجاوزه ، وان يخلص للماضي أو لقطعة من الماضي إن أحب أن يخلص لها ، وأن يمضي في المستقبل إلى غير غاية وعلى غير هدى ، وأن يقف في الحاضر

لا يعــدوه إلى أمــام ولا إلى وراء ، وأن يجمع إن شاء بين هذا كله فيفرق نفسه تفريقاً . وقــد تركنا المستقبل لمن بيده المستقبل ، وتركنا الحاضر للذين يشغلون بالحاضر ، وألغينا من الماضي ثلاثة وعشرين قرناً ، وأهملنا من المــاضي قروناً أخرى لا تحصى سبقت هذا العصر الذي اخترناه ووقفنــا عليه هــاتين الساعتين ؛ وألغينا من آماد المــكان مثل ما ألغينا من آماد الزمان ، فتركنــا الأرض القريبة والبعيدة ، وتركنا البحر والمحيط ، وتركنا الجو الذي يغمر البر والبحر ، ووقفنــا عقلنا وشعورنا وحسنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض في هــذه القطعة الصغيرة من الدهر . وجعلنا نسعى مبطئين مترفهين ، ونقف متأملين متفكرين بين هذه الاطلال اليونانية لا نعرف غيرها ولا تكاد هي تعــرف غيرنا ، فقد سبقنا إليها أهــل السفينة جميعاً وبلغناها قبل أن يبلغها أحــد فخلونا إليهــا وخلت الينا ، وقلنا لهــا وقالت لنا ، وملأنا منها قلوبنا وانصرفنا عنها وقــد ملأت علينا آفاق الأرض والسماء ، فذكرناها وسنذكرهــا ما امتدت لنا أسباب الحياة ، ونسيتنا هي وستنساناا كما نسيت أجيالاً كثيرة وكما ستنســى أجيالاً كثيرة مــا امتدت لهــا أسباب البقاء . وكان الــذيــن يكتنفونني من الأهل والرفاق يسعون من حولي ، وقــد أخذت أبصارهم وسحرت عقولهم واستهويت قلوبهم ، وجعلت أفواههم وألسنتهم تنقل إلي بعض ما يجدون بهــذه الآهات الطويلة المتصلة وهذه الألفــاظ القليلة المتقطعة التي ينطق بها المبهورون المسحورون حين يأخذ الاعجــاب عليهم طريق الإبانة والإفصاح . وكنت

أسمع لهم بإحدى أذني أو بجزء يسير من إحدى أذني ، أعرض عنهم بعقلي كله وقلبي كله وضميري كله . أتركهم لما يرون وأفرغ لما أجد ، وما أكثر ما كنت أجد ! وما أشد اختلاف ما كنت أجد ! فليس بالقليل على الإنسان المحدود أن يعيش في هذه القرون الثلاثة ، فيشهد نشأة العقل ونمو الفن وحياة الشعور ويقظة الضمير ، ويرى طريق الحضارة والرقي ترسم للأجيال وتقام فيها الأعلام تدفع إليها الإنسانية دفعاً ، ويقال لها هذه هي الطريق التي ستسلكينها راضية أو كارهة ، راغبة أو راهبة ، لا تخرجين منها ولا تتحولين عنها مهما تلقي فيها من الخير والشر ومهما يعترضك فيها من النعيم والبؤس ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وحتى تطوى السماء كطي السجل للكتاب .

ففي هذه القرون الثلاثة وفي هذه القطعة الضيقة من الأرض التي يحيط بها الطرف في أيسر الجهد ويطوف بها الإنسان في أقصر الوقت ، عرف الإنسان أن له عقلاً وشعوراً وضميراً . وان له من أجل ذلك حقاً في أن يكون حراً كريماً وأن عليه من أجل ذلك واجباً أن يرعى لنظرائه حقهم في الحرية والكرامة والامتناع على الضيم .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نشأت الديمقراطية ، فعرف الإنسان أن سلطان الحاكم لا يتنزل من السماء وإنما يخرج من الأرض ، وأن بين الحاكم والمحكوم عقداً اجتماعياً تصدره القوانين المكتوبة والدساتير التي تنقش في القلوب أولاً ثم تكتب في الصحف

بعد ذلك :

وعرفت الإنسانية أن الناس سواء أمام القانون لا يمتاز منهم فرد من فرد ولا تتفوق منهم طبقة على طبقة ، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالعمل الصالح والبلاء الحسن ، واستطاع سولون أن يتغنى في شعره الرائع بأنه حرر الأرض فلم تصبح وقفاً على فريق من الناس دون فريق .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الارض نظمت القوانين ما يكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين ، وردت القوانين إلى الشعب أمور الشعب ، وجعلت القوانين حكام الشعب خداماً للشعب ، وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤدوا إلى الشعب حساباً دقيقاً عما نهضوا به من المناصب ، وما استقلوا به من الأعباء ، وما قاموا به من الأعمال .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نما الفن الرائع ، وزها الشعر البارع ، وأزهر الأدب الرفيع ، وطوف سقراط بفلسفته في الشوارع والأزقة ، يعلم الناس وهو يحاورهم أن عليهم أن يعرفوا أنفسهم وأن يثقفوها وأن يهذبوها وأن يرفعوها من الصفو والعفو إلى حيث تطهر من دنس المنافع الوضيعة وتبرأ من أوضار الحياة الخسيسة وتعيش في جو من الفضيلة لا تجد الرذيلة إليه سبيلاً . ويعلم الناس وهو يحاورهم أن للإنسان ضميراً حراً ليس لأحد سلطان عليه ولا ينبغي أن يكون موضوعاً للمساومة ولا سلعة تعرض للتجارة ،

وأن حرية الضمير وحرية التفكير وحرية التعبير هي التي تجعل الإنسان إنساناً . فلما امتحن سقراط في فلسفته هذه صبر للمحنة وثبت للفتنة . وعلم تلاميذه وهو يحاورهم كيف يستقبل الإنسان الحر إلمام الخطب حين يلم ، وزيارة الموت حين يزور مبتسماً للخطب لأنه زائل ، وساخراً من الموت لأنه عارض من ورائه الخلود . وفي هذا الوقت نفسه كان سوفوكل ينطق أنتيجونا في ملعب التمثيل بأن هناك قوانين خالدة وجدت قبل الانسان وستوجد بعد الإنسان وهي قوام الخلق وملاك العقل ، فليس لاحد عليها سلطان وليس للمخلوق على الناس طاعة إن خالف عن هذه القوانين .

نعم ! في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، عرف الانسان عقله وقلبه وضميره ، ورسمت له فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس مناهج التفكير والشعور والسيرة ، وشقت له طريق الرقي ، وعلمته الطموح إلى الكمال والارتفاع عن النقص والتنزه عما يشين .

في هذا كله وفي أكثر من هذا كله كنت أذكر ونحن نسعى في هذه الاطلال اليونانية مستحضراً تلك الحقبة من الدهر متمثلاً ما كان فيها من خير كثير وشر كثير ، وما كان فيها من صراع بين الحق والباطل ، وما كان فيها من اختصام بين العدل والجور ، وما كان فيها من جهاد بين الرفعة والضعة ، وما كان فيها من ثورة على باطل الحياة وزخرفها ومن سمو إلى المثل العليا . وكنت أسمع خطباء الأثينيين ينافح بعضهم عن الحق ناصحاً

ويموه بعضهم على الجماهير مضللاً . وكنت أشهد ملاعب التمثيل وأرى أصحاب المأساة يرفعون الإنسان إلى صف الآلهة وأصحاب الملهاة يضعون الإنسان إلى منزلة الحيوان . وكنت أسمع حوار سقراط وأرقى مع أفلاطون إلى مثله الأعلى ، وأعود مع أرسطاطاليس إلى بحثه المتواضع الرفيع ، وأشهد الأحداث الكبرى تحدث بعيداً عن أثينا وتحدث قريباً من أثينا وتحدث في قلب أثينا ، وأرى جماعة الشعب تحاور في هذا كله وتقضي في هذا كله تصيب حيناً وتخطئ أحياناً ، ولكنها مستمسكة دائماً بحقها في السيادة والسلطان والاستئثار بتدبير أمرها من دون الطغاة. وكنت قد تركت في مصر شراً ونكراً وإثماً ، وخرجت وفي نفسي شيء من شرها ونكرها وإثمها ، فلما بلغت أصل القلعة وجعلت أرقى فيها قليلا قليلا ، وأتنفس من هوائها ذلك العذب ، وأتنسم من عبيرها ذلك الارج وأعيش في تاريخها ذلك الرائع ، احسست كأن شيئاً ما علق بنفسي من الشر والنكر والإثم قد جعل يزول عنها شيئاً فشيئاً ، وكأن نفسي قد جعلت تتخفف من عبء باهظ وثقل ثقيل ، حتى إذا بلغت البارتنون وجدتني خفيف النفس نظيف القلب صحيح العقل نقي الضمير ، وإذا أنا أدعو إليّ شعراء المأساة والملهاة ، وأدعو إليّ رواة القصص وكتاب التاريخ ، وأدعو إليّ سقراط ومحاوريه وأفلاطون ومناظريه وأرسطاطاليس وتلاميذه ، وأبرأ اليهم جميعاً من الشر والنكر والأثم وأشهدهم جميعاً على أني قد وفيت لمثلهم العليا . فلم أنقض عهداً ، ولم أضع وداً ، ولم أخن صديقاً ، ولم أغدر خليلا ، ولم

أشتري الراحة والدعة واللين بثمن بخس دراهم ودنانير تعد أو لا تعد . وإذا أنا اعاهدهم على أنني سأنفق ما بقي لي من الحياة كما أنفقت ما مضى عني من الحياة وفياً للحق حفياً بالفضيلة مترفعاً عما يخس الرجل ويزري بالمروءة ، متبرئاً من خيانة الأصدقاء والغدر بالأخلاء وبيع الضمير بالمال القليل أو الكثير .

وأنا في ذلك وإذا زوجي تهتف بي : أين أنت ! ألا تسمع لما يقال من حولك ؟ فأعود اليها مترفقاً مبتسماً ، واعتذر اليهـا في سذاجة بأنني كنت أعيش في القرن الخامس والرابع قبـل المسيح . قـالت وتضاحكت وتضاحك من حولنا : فعد إلى القرن العشرين بعـد المسيح ، واهبط معنا إلى حيث يعيش الناس في المدينة الحية ، فقـد يخيـل الي أنك أنسيت قهوة الضحى ؟

٢

ونهبط متمهلين مترفقين نسعى قليلاً لنقف كثيراً ، والرفاق من حولي يمدون أبصارهم إلى هذه الناحية أو تلك ليروا هذا المشهد أو ذاك من مشاهد الحكمة والفلسفة والأدب والفن والتاريخ . يمدون أبصارهم في هذه الناحية ليروا قمة البارناس ويمدون أبصارهم في تلك الناحية ليروا صخرة سلاميس . فعلى قمة البارناس تجلت روعة أبولون فملأت الأرض جمالاً ونوراً . وعند صخرة سلاميس تحطم اسطول الملك الأعظم فانتصرت قوة العقل على قوة الملك وسعة السلطان . ولا يكاد الرفاق يردون أبصارهم بعد أن مدوها حتى تقف بها الطريق فتتعلق بهذا الأثر أو ذاك من هذه الآثار القريبة التي وقفوا عندها فأطالوا الوقوف ،ولكنهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنها، وقد علقت بها نفوسهم فلا يستطيعون لها استخلاصاً إلا في كثير من الجهد الشاق العنيف كأنها قطع الحرير قد علقت بالشوك ، فلابد من الحيلة الدقيقة الرفيقة لاستخلاصها منه دون أن يلحقها البلى. وربما انحنى الرفاق فجأة إلى الأرض لا يحاولون ركوعاً ولا سجوداً،

وانما دعتهم هذه الزهرات النضرات من زهر العشب الذي ينبت في أعقاب الغيث بين ما تشقق من الصخور . وأنا بين الرفاق ساهم واجم أسعى متعثراً وأقف حيران وجلا أود لو طال الوقوف فأتزود من عبير عرار نجد ، فما بعد هذا الضحى من عرار ، واتغنى في نفسي بسينية البحتري :

صنت نفسي عما يدنس نفسي

وترفعت عن جدا كل جبس

ولكني أضع « يونان » مكان « ساسان» وتتغنى نفسي الكئيب ببيت البحتري على هذا النحو :

أتسلى عن الخطوب وآسى لمحل من آل يونان درس

وقد ارتفع الضحى وأوشك النهار أن ينتصف حين هبطنا من المدينة العليا مدينة الموتى والآلهة ، إلى المدينة السفلى مدينة الأحياء والمنافع وما تجر المنافع على الناس من الأرزاء والكوارث والخطوب . وهؤلاء رفاقي قد ردوا نفوسهم العاقلة الشاعرة إلى أماكنها الخفية القصية من أعماق الضمائر ، واستردوا نفوسهم المفكرة المدبرة ، واستقبلوا الحياة اليومية كما يستقبلها غيرهم من الناس ، فجعلوا ينظرون إلى دور التجارة وما يعرض فيها للبيع والشراء . وجعلوا ينظرون إلى الذاهبين والآيبين يتوسمون في وجوههم وفي أشكالهم وصورهم ، ليتبينوا مظاهر النعيم عند قوم ومظاهر البؤس عند قوم آخرين ، ويستخلصوا لأنفسهم رأياً عن حياة اليونان المحدثين في مدينتهم الخالدة . فما أكثر ما قرأوا وما أكثر ما سمعوا عن

حياة اليونان في بلادهم ! قوم يقولون إنها بلغت من البؤس أقصاه ، وقوم يقولون إنها بلغت من النعيم أقصاه ، وقوم يقولون إن اليونان كغيرهم من الناس قد لعبت بهم تلك الإلهة العمياء التي تسمى المصادفة ، فأعطت بغير حساب وحرمت بغير حساب . وأمسكت بعض الناس في نعيم ناعم ، وأمسكت بعضهم الآخر في بؤس بائس ، وتركت فريقاً ثالثاً يترددون بين السعادة والشقاء ، يدعون فلا يسمع لدعائهم أحد ، ويمدون أكفهم إلى المصادفة فتلقى فيها الشيء بعد الشيء وتردها أصفاراً في أكثر الأحيان ، فهم ينفقون حياتهم في أمل متصل وانتظار خائب ، لا يستيئسون فيريحهم اليأس ، ولا يظفرون فيريحهم الظفر ، ولكنهم معلقون بين اليأس والرجاء ، تعبث بهم ريح الحياة الهوجاء عبثاً مضنياً ملحاً لا يريح منه إلا الموت.

وقد بلغنا قهوة من قهوات أثينا فنقبل عليها مكدودين ، ويتلقانا خادمها باسم الثغر مشرق الوجه يعرض علينا ما عنده في يونانية فصيحة ، فإذا لم نفهم عنه عرض علينا ما عنده في فرنسية متعثرة ، وإذا هو يعرض علينا خير ما تعرض القهوات على الناس في بلاد الترف والرخاء . وما نكاد نجلس إلى قهوتنا ونقبل على قليل من طعام حتى ننظر فإذا المعوزون والمعدمون يتساقطون علينا من كل وجه ويأخذوننا من كل نحو ، كلهم جائع يريد أن يطعم ، وكلهم محروم يريد أن يعطى ، وكلهم قد ظهر في وجهه البؤس وألح عليه الضرر ، وإذا قهوتنا منغصة وطعامنا الينا بغيض ، وإذا نحن ننهض متثاقلين نريد أن نفر بأنفسنا

من هذه المدينة التي اختلط فيها البؤس والنعيم واستزجت فيهما الضراء والسراء ، وسعد بعض أهلها حتى ضاقوا بالسعادة ، وشقي بعض أهلها حتى ضاق بهم الشقاء .

وقد فاجأتنا في هذه المدينة بل فاجأتنا قبل ان نهبط من السفينة ظاهرة كنا نسمع عنها ولا نحققها ، فالدرهم اليوناني قد أصبح وهماً من الأوهام ، لا يكاد عقل يحقق منه صورة واضحة . ويكفي أن تعلم أن المليم المصري يعدل ثمانية وعشرين درهماً يونانياً ، وأن القرش المصري يعدل ثمانين ومائتي درهم يوناني ، وأن الجنيه المصري يعدل ثمانية وعشرين ألف درهم يوناني ، واننا لم نقم عن قهوتنا حتى طلب الينا الخادم سبعة عشر ألف درهم ، ولم ننزل من سيارتنا حتى طلب الينا السائق سبعين ألف درهم ، واشترينا صحيفة ضئيلة نحيلة تصدر بالفرنسية فدفعنا ثمنها خمسمائة درهم ، وعدنا إلى أماكننا من السفينة وقد أنفقنا في صباحنا بين هذه الألوف المؤلفة أقل من ثلاثة جنيهات . فانظر إلى هذه الأرقام تملأ الافواه والآذان وتروع العقل والخيال ، حتى إذا أحصيت وحققت لم تتكشف إلا عن أيسر اليسير وأقل القليل . وكذلك حياة اليونان في أيسر ما ظهر لنا أثناء هذه الساعات القصار : ألفاظ ضخمة تملأ الأفواه والآذان وتروق العقل والخيال ، ثم تتكشف آخر الأمر عن غير طائل ولا غناء . وإنما هو الجو الذي عاش فيه اليونان فيه دائماً ، جو البغض الكثير والحب القليل ، والصراع المهلك بين الإخوة لا يحفل بشيء ولا يبقي على شيء ولا يتحرج من شيء ولا يكره

الاستعانة بالأجنبي على الأخ الشقيق والخليل الصديق .

كذلك عاش اليونان في عصورهم القديمة ، فانقسم أهل أتينا بين المتعصبين لاسبرتا والمتعصبين للفرس ،وبين المتعصبين لاسبرتا والمتعصبين لمقدونيا . وهم ينقسمون الآن بين المتعصبين للشيوعية الروسية والمتعصبين لرأس المال الامريكي البريطاني . وأولئك وهؤلاء يتنابزون بالألقاب ويتقاذفون التهم ويتداعون بالإثم والإجرام ويهدر بعضهم دم بعض ، حتى إذا جد الجد وأقبلت الكوارث الجسام رأيت الشعب اليوناني قد ثاب إلى وحدة موقوتة ولكنها رائعة تفعل الأفاعيل وتأتي بالأعاجيب . وهو حين يتفق وحين يفترق وحين يأتلف وحين يختلف وحين يتظاهر وحين يتآمر موطن مخصب العقل والقلب والضمير ، قد امتلأت نفسه خيراً حتى أفاضت الخير من حولها ، وامتلأت نفسه شراً حتى أفاضت الشر من حولها ، وأتاحت للحكماء والفلاسفة أن يتفكروا ويتدبروا ويملأوا الأرض حكمة وعلماً ونوراً .

وقد صعدنا إلى السفينة بعد أن انتصف النهار وقد غنيت قلوبنا بما شهدت من روعة القديم اليوناني وعبرة الحديث اليوناني . ونحن ننفق في السفينة ساعات نضطرب في أمورنا كما تعودنا أن نفعل وكما تعود السفر أن يفعلوا ، وأنا أريد أن استرد نفسي فلا أجد إلى ذلك سبيلاً . وقد أخذ صاحبي كتابه وجعل يقرأ فيه وجعلت اسمع له بأذني وأعرض عنه بعقلي وقلبي . ولكن ماذا ؟ إن شيئاً يحدث فإذا أنا أعود إلى نفسي فجاءة لا لأبقى معها بل لأشغل عنها بعد قليل .فهذا الجو قد امتلأ من

حولي نغماً كأروع ما يكون النغم يحمله « الراديو » من أثينا ليملأ به السفينة ويسعى معها في البحر . وأنا أعرف هذا النغم وآلفه وتصبو إليه نفسي ، وأخلو اليه في القاهرة بين حين وحين ، فيضع عن نفسي ما يثقلها من الإصر وما يكون عليها من الأغلال ، ويردها إلى ما أحب لها من النقاء والصفاء ، والترفع عن الصغائر والدنيات . إنه لحن بيتهوفن الذي يسمى لحن الإمبراطور . لقد أقبل عليّ فأقبلت عليه ، ولقد غمر نفسي بنور لا يشبهه إلا النور الذي غمرها في الضحى حين كنت في القلعة الآتينية الخالدة . جمال الآثار اليونانية يملأ النفس إشراقاً مع الصبح ، وجمال الموسيقى يملأ النفس إشراقاً مع المساء : إني لظالم للحق ولنفسي حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التي تملأ جو مصر نقيقاً . وما الذي يمنعني حين تثقل عليّ عشرة الضفادع أن أنسلّ من بينها كما تنسل الشعرة من العجين ، فأخلو إلى روائع القديم وأخلو إلى روائع الحديث ، وأتعزى بجمال الأدب والفن والموسيقى عن قبح السياسة والمنافع وغدر الغادرين ومكر الماكرين وخيانة الخائنين !

أفق أيها القلب الذي شفه الحزن وبرح به الآلام وتركت فيه عشرة الناس ندوباً بغيضة . أفق أيها القلب ، فإن عشرة الناس لم تفرض عليك ما دمت تستطيع أن تفر منها إلى عالم كله صفاء ووفاء ، وطهر ونقاء ، ورفعة وإباء . لقد كنت كلما ألحت عليك الخطوب تتمدح بأنك قد اتخذت لنفسك شعاراً من قول أبي نواس :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كل سلطان عليّ أمير

فما لك قد أدركك الضعف وسعى اليك الوهن ، وكدت تشك في نفسك وكدت تنكر من أمرك ما لم تتعود له إنكاراً ؟ لتثب إلى نفسك ولتثب إليك نفسك ، ولتضف إلى هذا البيت الذي تحبه من شعر أبي نواس بيتاً آخر طالما أحببته من شعر بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي عليّ سواد

وقد أنكرتك مصر أو انكرت مصر ، فخرجت منها ذات يوم مع الصبح ، ولم تكد تنأى عنها حتى غمرك جمال القديم اليوناني في الضحى ، وجمال موسيقى بيتهوفن مع المساء ، فنسيت مصر وأهلها ، ونسيت مكر الماكرين ، ولهوت عن غدر الصديق وعن جحود الجاحدين . والنغم من حولي يملأ الجو قد أخذ نفسي من جميع أقطارها ، وغمر قلبي من جميع وجوهه ، وإذا أنا في هذه الساعة القصيرة الحلوة أحس كأنني أعيش مع ابنتي التي تركتها في القاهرة ومع ابني الذي أسعى اليه في باريس . وقد أخذت زوجي بيدي وهي تقول لي في همس رفيق : ألا تظن أن حياة الناس ما زالت بخير ما داموا يستطيعون أن يصعدوا إلى الأكروبوليس حين يقبل الصبح ، وأن يستمعوا إلى بيتهوفن حين يقبل الليل ؟!

٣

ذكرته منذ أشرق الصبح إلى أن أقبل الليل ، فلم تكد السفينة تدنو من الساحل وتستقبل ثغر جنوا حتى ملأت ذكراه قلبي وعقلي وضميري . ولم أكد أهبط من السفينة وأمس بقدمي أرض هذه المدينة حتى أحسست كأنه يسعى معي قد أخذ ذراعي اليسرى بذراعه اليمنى ومضى معي في أناة وتؤدة ووقار ، يتحدث إلي في صوته الممتلىء الذي يستحب الهمس على الجهر ، ويطرق معي في حديثه موضوعات مختلفة كثير منها يتصل بالدعابة والعبث الحلو أو المر ، وقليل منها يتصل بالجد الصارم .

ذلك أني صحبته على هذا النحو منذ بضعة عشر عاماً حين شهدنا معاً مؤتمر المستشرقين الذي اجتمع في روما سنة ١٩٣٥ وقد قضينا أيام المؤتمر نسكن داراً واحدة نغدو منها مع الصبح إلى الجامعة القديمة لنشهد جلسات المؤتمر ، ونعود اليها متلكئين حين يريد النهار أن ينتصف ، نسعى سعياً رفيقاً وقد نعوج على

هذه القهوة الكبيرة أو تلك القهوة الصغيرة فنلم بها إلمامة قصيرة، ثم نتكلف الإسراع إلى الدار حتى لا يطول انتظار الذين سيشاركوننا في الغداء . ثم لا ننصرف عن طعامنا حتى نرجع إلى الجامعة مسرعين ، فنقيم فيهما ما أمسكنا المؤتمرون بأحاديثهم ومحاضراتهم، ثم نروح منها وقد تخففنا من ثقل ثقيل وفرغنا من العلم والعلماء لأحاديثنا العابثة الجادة التي لم تكن تحب ان تنتهي قبل أن ينتصف الليل . فلما تقضت أيام المؤتمر وزرنا من معاهد روما ومعالمها ما شاء الله أن نزور ، مضينا معاً إلى فلورنسا فأقمنا فيها يوماً وبعض يوم ، نريد أن نزور معالمها ومعاهدها ومتاحفها في شيء من الجد ، ويأبى علينا الكسل وحب الحديث إلا أن نمضي في شوارعها متباطئين ، ونجلس في قهواتها كلما أتيح لنا الجلوس ونشتري من طرفها ما كانت تسمح لنا بشرائه ثمالة من المال بقيت لنا من سفر طويل تنقلنا فيه بين باريس وروما وغيرهما من المدن الفرنسية والايطالية . ثم نبلغ جنوا ذات يوم حين مضى أكثر النهار . وإذا المدينة قائمة قاعدة تشارك إيطاليا كلها في قيامها وقعودها، لأنها كانت تنتظر كما كانت إيطاليا تنتظر وكما كان العالم كله ينتظر نبأ خطيراً وحديثاً أجل منه خطراً . في ذلك اليوم كانت إيطاليا تنتظر أن تدعى كلها في الأصيل إلى تعبئة تجريبية والى الاستماع لخطبة كان موسوليني يريد أن يلقيها على الشعب الايطالي كله بل على العالم كله . وما هي إلا أن ينطلق ذلك الصفير المزعج ، فتمتلىء به ارجاء المدينة ، وتفرغ له الدور والمتاجر والمصانع ، ويهرع له الناس كلهم شيوخهم

وكهولهم وشبابهم وصبيانهم إلى الميادين العامة ليسمعوا حديث موسوليني عن غزو الحبشة وتجديد الامبراطورية الرومانية التي يجب أن يكون لها مجد طريف يشبه مجدها التليد. ولم أحس الغربة قط كما أحسستها في ذلك المساء ، فقد كان الايطاليون جميعاً مبتهجين تملأ قلوبهم الثقةويغمر نفوسهم الأمل وتطمئن ضمائرهم إلى أنهم قد ملكوا الدنيا وقهروا أهل الأرض وأصبحوا للناس جميعاً سادة وقادة وعليهم جميعاً ملوكاً وحكاماً . ونجلس إلى مائدتنا حين يقبل الليل ، وإذا الخادم يسعى علينا بصحافه وأكوابه وفي نفسه كثير من الازدراء لنا والعطف علينا ، فقد علم اننا مصريون وقدر في نفسه أن سنكون له في يوم من الأيام أتباعاً وخدماً ، وأن سيكون منا من يسعى لخدمته بالصحاف والأكواب كما يسعى هو لخدمتنا ، وهو يعنف بنفسه ويشق عليها حتى لا يتحدث إلينا بما يداعب ضميره من الأمل ،ولكنه آخر الأمر لا يملك أن يقول في ضحك ساخر : أسمعتم دعاء النفير ؟ إنه إيذان بسقوط الإمبراطورية البريطانية، فلن تشرق شمس الغد حتى تزلزل الأرض بهذه الإمبراطورية التي أذلت الناس ، والأيام دول ، فسيدال من بريطانيا العظمى لإيطاليا منذ اليوم .

ونسمع نحن فنخفي الغيظ ونكتم السخرية وتستخف نفوسنا بايطاليا وبريطانيا جميعاً . ولكننا نذكر مصر فنرثي لها ونشفق عليها ، ونسأل أنفسنا عما تضمر لها الأيام وعما سيصيبها من هذا الصراع ، ثم لا نلبث أن نعود إلى حديثنا الذي يعبث كثيراً

وبجد قليلاً . حتى إذا فرغنا من طعامنا خرجنا نساير ساحل البحر وفي يد كل منا سيجار ضخم يرفعه إلى فمه بين حين وحين ، والحديث متصل لا يريد ان ينقضي ، وقد بلغ السيجار آخره وتبعته السجائر الصغار ، حتى إذا أوشك الليل أن ينتصف عدنا إلى فندقنا وأوينا إلى مضاجعنا ، وغدونا مع الضحى إلى السفينة فأبحرنا عائدين إلى مصر ، وقضينا أيام السفينة فرحين مرحين ، نطرد الجسد إذا ألم بنا الجد ، ونذود حديث العلم إذا خطر لنا حديث العلم ،ولكننا لا نكاد نستقبل ثغر الأسكندرية حتى نفترق ساعة أو بعض ساعة ثم نلتقي ، وإذا هو قد دخل في زيه القديم واسترد وقاره الذي يعرفه مواطنوه وجلس والتف حوله نفر من المصريين يتحدثون اليه ويسمعون منه في إكبار وإجلال . وأدنو فيلقاني كما تعود أن يلقاني في مصر ملقياً إلي تحيته الحلوة بصوته العذب الذي يملؤه الجد وتستخفي فيه مع ذلك دعابة يستسيغها هو وأسيغها أنا ، ولا يحس الحاضرون منها شيئاً .

كل هذا ذكرته حين وطئت قدماي أرض جنوا ، وكل هذا استحضرته وأنا أطوف في المدينة ألم بهذه القهوة وأقف عند هذا المتجر وأدخل هذا المطعم ، ولا أترك المدينة حتى أمر بالمطعم الذي أصبنا فيه عشاءنا في يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

وأشهد لقد كنت في ذلك اليوم شخصين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما يظهر الفرح والمرح ، ويظهر الكآبة

والحزن ، بفرح بزيارة إيطاليا التي لم يرها منذ أعلنت الحرب ، ويحزن لما أصاب المعالم والمعاهد فيهما من الدمار ، ولما شاع في نفوس أهلها وعلى وجوههم من البؤس ؛ ولهذه الصور التي تعرض في بعض الشوارع تمثل بعض الذين فتكت بهم الحرب فتكاً مروعاً بشعاً ، ولهذه الأزهار الرخصة التي صفت عند هذه الصور والتي يتعهدها الناس فيغيرونها قبل أن يدركها الذبول .

والآخر حزن كله وكآبة كله ، ووفاء كله لا يعرف الفرح اليه سبيلاً ، ولا يسمع لحديث الذين يسعون من حوله ، ولا يحس أن أحداً يسعى من حوله ، وإنما يسمع لحديث واحد متصل يعبث كثيراً ويجد قليلاً ، ولكنه يأتي من مكان بعيد يخترق إلي حجب الموت وينفذ إلي من طريق الحياة .

وأبلغ السفينة كاذب الفرح صادق الحزن منافقاً فيما بيني وبين الناس من صلة ، فأضطرب مع السفر فيما يضطربون فيه . حتى إذا أبحرت السفينة وأقبل الليل ثم تقدم فبلغ نصفه أو كاد وهدأت الحركة من حولي ونام الأهل والزمان ، برئت من الفرح الكاذب وتخلصت من هذه الصلات المنافقة ، وخلوت لا إلى نفسي ولكن إلى هذا الصديق العزيز أسمع حديثه يخترق إلي حجب الموت وينفذ إلي من طرق الحياة ، وقد فنيت في هذا الحديث حتى لم أحس شيئاً ولا خاطراً ولا فكرة ولا شعوراً . ولكني أهب فجاءة وقد ملكني الذعر وملأني الخوف لأني أسمع صوته ، أسمعه بأذني لا بضميري . أسمعه

كما يسمع الناس أصواتهم حين يتحدث بعضهم إلى بعض . أسمعه وأمد يدي كأني أريد أن أصافح يده ، ولكن يدي لا تلقى شيئاً وإنما هي ممتدة في الهواء ، والصوت الحلو الجاد الذي تشيع فيه السخرية الخفية متصل يقول :

يا مؤثر السهد على النوم عداك ما تخشى من اللوم
قد أقبل الناس على لهوهم وماز الجد من القوم
أحافظ أنت لذكراي أم شغلت عن أمسك باليوم

ولولا أني وجدت في صوته إيناساً رد إليّ نفسي لخفت أن أصيح فأروع النائمين . ولكني أنست إلى هذا الصوت كما تعودت دائماً أن آنس إليه ، وإذا أنا أسأله من تكون ؟ وإذا أنا أسمعه يقول إنك لتعلم من أكون ، سلني إن شئت بضميرك ولا تجهر بسؤالك ولا تخافت به ، فان للموتى آذاناً تسمع نجوى الضمير .

وقد جعلت ألتمس نفسي وأحقق ما حولي لعلي أن أكون مغرقاً في نوم أو هائماً في حلم ، ولكنه يردني إلى الثقة ويؤكد لي في صوته العذب الحلو أنني لست نائماً ولا حالماً ولا هائماً ، وإنما أنا يقظ كأقوى ما تكون اليقظة ، حاضر الذهن كأحسن ما يكون حضور الذهن . وكل ما في الأمر أنني أنكر مكانه مني في هذه السفينة التي تسعى بين إيطاليا وفرنسا متابعة عن بعد ساحل الريفييرا ، على حين أنه قد ترك دنيانا هذه منذ عام وبعض عام . وأكاد أجيبه بأن هذا هو الشعور الذي

أجده والخاطر الذي أديره في نفسي . ولكنه ليس في حاجة إلى أن أرد عليه رجع حديثه ، فهو يختطف الشعور الذي أجده قبل أن أحققه في نفسي ، ويختطف الفكرة التي تخطر لي قبل أن أستتمها في ذهني . وكأنه أحس أن هذا الحديث الخاطف يشق عليّ ويكلفني من الجهد والمشقة ما يجاوز طوق الأحياء ، فيعتذر إليّ متلطفاً وهو يقول : لا بأس عليك ! فقد تحدث إليّ الموتى منذ عام وبعض عام حتى ألفت أحاديثهم الخاطفة ، وأنسيت حديث الأحياء ذلك المستأني البطيء . وأهم أن أسأله عن مكانه مني ، فينبئني بما يملأ نفسي وجلاً ورعباً ، وبما أحب أن يستحضره الأحياء دائماً حين يعملون وحين يقولون وحين يفكرون وحين تتصل أعمالهم وأقوالهم وخواطرهم بما كان بينهم وبين الموتى من صلة قبل أن يقطع الموت بينهم أسباب الحياة : ينبئني بأن الموتى لا يفارقون الأرض إذا خرجوا من أجسامهم إلا بعد وقت طويل لا يعدّ بالأشهر ولا بالأعوام ؛ فهم في هذه المهلة التي تتاح لهم قبل أن يخرجوا من الأرض موكلون بمثل ما كانوا موكلين به قبل أن يموتوا : يرون ويسمعون ويعرفون وينكرون ، ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً أو أن يحدثوا شيئاً . وهذه المهلة هي التي يشار اليها في أحاديث الديانات والسير والأساطير بما يسمى الأعراف ، وقت يمتحن الناس فيه بعد أن يموتوا وقبل أن يتلقوا ما قضي لهم من مثوبة أو عقوبة ، يرون فيه أعمالهم وأقوالهم وآثارهم ، فيشقون كثيراً ويسعدون قليلاً ويمحصون بما يجدون من السعادة

والشقاء . ولا يبلغون آخر هذه المهلة حتى يكونوا قد خلصوا لما سيستقبلون من حياة راضية أو قاسية إلى آخر الأبد إن كان للأبد آخر .

وهم في هذه المهلة مدفوعون إلى أن يستعيدوا حياتهم الأولى كما أنفقوها ، فهم يلمون بكل مكان ألموا به حين كانوا يحيون في حياتهم الدنيا ، وهم يعرضون على ما قدموا من خير وشر ويعرض عليهم ما قدموا من خير وشر ، وهم يمثلون سيرتهم كلها تمثيلاً ، فيعملون الخير عالمين بأنه الخير ويجدون لذلك راحة وروحاً ، ويقارفون الشر عالمين بأنه الشر فيجدون لذلك شقاء وبؤساً وعذاباً أليماً .

قال صاحبي : وثق بأننا لا نمثل حياتنا مرة أو مرتين أو مرات قليلة ، وإنما نمثلها ونمثلها مراراً لا تحصى ، حتى يشق علينا ذلك ويضيق بنا أو نضيق به ، وحتى يود كل واحد منا لو صرف عن حياته صرفاً فلم يخرج اليها ولم يخرج منها ، وحتى يقول كل واحد منا في نفسه ألف مرة ومرة في كل يوم بل في كل ساعة : يا ليتني كنت تراباً .

قال صاحبي : وأنت تراني الآن في هذه السفينة أتحدث إليك وأسمع منك ، فأصل ذلك أن حياتي التي أنفقتها في إيطاليا وفي فرنسا وفي أوروبا كلها تعرض علي وأنا أعرض عليها . فقد كنت في روما قبل أن ألقاك وأقبلت على جنوا فلقيتك ، وما أدري أأدفع إلى فرنسا فألقاك أم أرد إلى مصر أم أدفع إلى وجه آخر غير فرنسا ومصر من الوجوه التي دفعت

اليها في حياتي الأولى . بل ما أدري ! لعلي أن أدفــع إلى فرنسا وأن أدفــع إلى باريس ، وأن ألمّ بالأماكن التي ألممت بها وحدي أو مع غيرك من أصحــابي ، وأن ألم بالأماكن التي ألممت بها معك ، ثم لا يتاح لي مع ذلك أن ألقاك كما ألقاك الآن ، وأنــا أقول لك وأسمع منك كما أقول لك وأسمع منك الآن ، فــأن أمورنا في هــذه المهلة التي أتيحت لنــا تجري على قــوانين لا نعقلها ولا نحققها ولا نحيط بهــا ، كما كانت أمورنا في حياتنا الأولى تجري على قوانين ليس لنا عليها سلطان. قلت لصاحبي : وتظن أن أمورنا تجري في حياتنا الدنيا على قوانين لا سلطان لنــا عليهــا ؟ قــال : لا أظن ذلك وإنمــا أقطع بــه ، ولو قد جرت أمورنا على قوانين نعرفهــا ونألفهــا لقدمنا من الأعمال غــير ما قدمنا ، ولتجنبنا من السيرة مــا أقبلناعليه راغبين فيه عاكفين عليه محبين لــه أشد الحب . أتذكر أنك أنكرت عليّ ذات يوم بعض أمري دون أن تحدثني بانكارك أو تظهرني على ذات نفسك وإنما وجدت عليّ وأضمرت الموجدة وأحسست أنا ذلك إحساساً قوياً ، ولمت نفسي فيه بعض اللوم ولكني مضيت لشأني غير مثقل على نفسي بالعتب ولا ملحّ عليها في اللوم.

أتذكر ذلك ؟ قلت : نعم ! قال : وتذكر انك لم تتحدث بموجدتك إلى أحد من الناس ؟ وإنمــا تحدثت بها إلى ما حفظت في نفسك من ذكرى إخوتي الذين سبقوني إلى الموت ؟ قلت : نعم ! قــال : فهل تعلم أن موجدتك تلك تعذبني عذاباً لا قبل لي بــه ؟! قلت : فــإني قد أنسيت هــذه الموجدة قبــل أن

تفارقنا . ألا تذكر أننا التقينا وتصافينا واستعدنا ودنا القديم غضاً
ضراً كأحسن ما عرفناه ؟ قال : بلى ! إنك قد أنسيت هذه
الموجدة وإن ما استأنفنا من الصفو والعفو قد أراحني من وخز
الضمير ، ولكن إخوتي لم ينسوا هذه الموجدة ، ولكن الكتاب
الذي يسجل علينا أعمالنا ولا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا
أحصاها قد سجل إساءتي إليك فيما سجل ، فهل تريد أن تعرف
كيف أعذب بإساءتي اليك ووجدك عليّ ؟ لا يكاد يمضي
وقت طويل حتى أراني أحدث الإساءة اليك بمحضر من إخوتي
كلهم ، وأراك تأسى لذلك أشد الأسى ، وأرى إخوتي ينظرون
إليّ شزراً ثم يتحولون عني معرضين عائفين ، ثم يكرهون لقائي
وحديثي وقتاً لا أحصيه . وأجد أنا من موجدتك ومن إعراضهم
ومن هذه الصورة البشعة التي تعرض عليّ ألماً لا أستطيع أن
أصوره ولا أستطيع أن أصبر نفسي عليه . وكذلك أعذب بسيرتي
كلها منذ استجبت لظروف الحياة ، فآثرت المنفعة العاجلة
على المودة القديمة ، وأرضيت السياسة على حساب الصداقة
والإخاء . قلت : وقد أثر ذلك في نفسي أبلغ الأثر : فهل أملك
لك من هذه العاقبة المؤلمة شيئاً ؟ قال : نعم ! تملك أن تغفر لي
وقد فعلت ، وأن تستغفر لي لعل الله أن يتجاوز لي عما قدمت ،
ولعل إخوتي أن يلقوني بغير ما جعلوا يلقونني به من النبو والإعراض .
قلت : لأفعلن ولأدعون أصدقاءك جميعاً أن يفعلوا مثل ما أفعل
وأن يستغفروا لك مصبحين وممسين وهذا أيسر ما لك عليهم من
الحق ، فقد بررتهم ورفقت بهم وأحسنت اليهم . والحسنات

يذهبن السيئات ، والمكرمات يمحون الخطايا . قال : وأخرى أحب أن أدعوك إليها وهي ألا تشكو الأحياء حين يسيئون إليك إلى الموتى ، فإن للموتى قسوة لا تكاد تحققها ، فهم لا يعرفون رحمة ولا رأفة ولا إشفاقاً . فمهما يسيء الأحياء اليك ، فلا تكلهم إلى الموتى ولا تستعد عليهم أحداً ، ولكن كلهم إلى عفوك وصفحك ، وكلهم بعد ذلك إلى أنفسهم ، فإن لهم ضمائر إن لم تعذبهم الآن فستعذبهم بعد أن يفارقوا الحياة .

وا رحمتاه للأحياء من عذاب الضمائر حين يموتون !

واهاً لإخواني قد أفطروا   ولم أزل أمعن في الصوم

قلت فاني لم أفهم عنك هذا البيت .

قال : ولن تفهمه حتى تصوم كما أصوم ، فان للموتى أحاديث لا يستطيع الأحياء لها تأويلا .

وأريد أن أرد عليه رجع حديثه ، ولكني أسمع صوتاً عذباً يدعوني قائلاً : واها للذين ينامون ؛ وقد استقبلت السفينة ثغر مارسيليا ، فأفيق متكلفاً وأنهض متثاقلاً وأريد أن أقص على زوجي بعض ما كنت فيه ، ولكنها تسخر مني قائلة : لو انصرفت عن بعض السخف الذي تغرق فيه نفسك أثناء اليقظة لما عرضت لك هذه الأحلام المروعة . يجب أن تكون قد فكرت قبل أن تنام في تلك القصة التي أثقلت علي وعلى الناس بالحديث عنها والتي أجراها صاحبك جان بول سارتر بين الموتى ، كأنه قد فرغ من الأحياء فلم يبق له إلا أن يشغل نفسه بالموتى : أسرع إلى ثيابك ، فإنني لم أعدد أمتعتنا بعد ، وما أحب أن

نبلغ المرسى ونحن في غرفتنا هـذه : وأسرعت إلى ثيابي طائعاً وأنا أقسم بيني وبين نفسي ما فكرت في قصة جان بول سارتر منذ ركبت في السفينة بل منذ أكثر من شهرين .

٤

قالت وفي صوتها حنان | ينم عن كامن التياع
لا يلبث الأصدقاء حتى | يدعوهم للفراق داع

ثم ألقت إليهن نظرة طويلة حزينة وإن كان قلبها ليملؤه الفرح والمرح والغبطة لبلوغها أرض وطنها ولأنها ستلقى ابنها بعد يوم وبعض يوم. قالت لي وهي تتنهد تنهداً لم يستطع أن يخلص للحزن: « وددت لو استصحبتهن إلى باريس. ولكن ماذا أصنع بهن أثناء هذا النهار الطويل الذي سننفقه في مارسيليا متنقلين من قهوة إلى مطعم ومن مطعم إلى قهوة وهن صاديات إلى المساء؟! قلت متضاحكاً وفي نفسي حزن لا يكاد يبين: نعم! وماذا تصنعين بهن في هذا النهار الطويل الذي ستقضينه في مارسيليا متنقلة بين المتاجر، لا تلمسين بواحد منها إلا لتتركيه إلى غيره، محبة لذلك مشغوفة به، لا تشترين وإنما تنظرين وتقدرين لعلك أن تشتري ذات يوم؟

وكذلك تحول الحديث من جد إلى لعب، ومن حزن إلى

فكاهة ودعابة ، وأضمرت القلوب ما أضمرت لتلك الزهرات النضرات من حب وود وحنان . وكانت تلك الزهرات قد لقيتنا في محطة القاهرة أرسلها للقائنا ووداعنا ومرافقتنا أثناء السفر صديق كريم علينا حبيب إلينا ، وحملها من مودته وإخائه ووفائه ما لا تستطيع الكلمات أن تؤديه ولا أن تحمله ، وما يحسن الزهر أن يحمله ويؤديه في بلاغة قصد لا يزينها الإطناب ولا يحسنها الإيجاز ولا تستقيم لها المساواة ، وأين هي من ذلك وهي بلاغة لا تؤدى إلى القلوب بالأصوات والكلمات وإنما تؤدى إليها بالجمال النضر البارع والأرج الرائع النفاذ ! ولم تكد هذه الزهرات تلقانا وتسمع في شيء من السخرية حديث من حملها إلينا وهو يبلغنا تحية مرسله ، وحديثنا نحن ونحن نتقبل التحية شاكرين ونتلقى الزهر كلفين بسه مرتاحين اليه — أقول لم تكد هذه الزهرات تلقانا ساخرة من كلامنا ومن إعجابنا ومن عبارات التأثر تلك التي يتبادلها الناس حتى طوت عنا أسرارها طياً وأخفت علينا أخبارها إخفاء . كانت تعلم في أكبر الظن أن القطار لا يصلح لنجوى الزهر ، لكثرة ما يملأ به الأنفس والأسماع من الضجيج والعجيج ، ولكثرة ما يعرض للسفر فيه مما يشغل عن النجوى والحديث .

والزهر لا يحسن النجوى إلا حين يهدأ من حوله كل شيء ، وحين يخلو اليك وتخلو إليه ، وحين يفرغ لك وتفرغ له . فلم تحفل بنا إذن تلك الزهرات وإنما انطوت على نفسها انطواء ،

والتوت عنا التواء ، وأسرعنا إلى صاحب « البولمان » نلتمس عنده شيئاً من ماء ، فانتظرتنا راضية أو كارهة وصحبتنا بين القطار والسفينة ناعمةأو بائسة، واحتملت عبث الأيدي بها حين بلغنا مستقرنا من السفينة ، وأوت إلى الآنية التي صففت فيها تصفيفاً ، ولم تكد تفرغ من الناس ويفرغ الناس منها حتى تحدثت فأحسنت الحديث .

تحدثت إلى قلوبنا وأذواقنا وعواطفنا، فزينت الود الخالص الذي لا يصدر عن طمع ولا عن خوف ، والذي لا يشوبه رهب أو رعب ، والذي لا تفسده مخادعة أو مصانعة ، والذي لا يعرب عن آمال تريد أن تحقق وتخشى أن تخيب ،والذي لا يصور يأساً من غيرك ورجاء فيك ، والذي لا يبتغي عندك نفعاً ولا يتقي منك ضراً ،والذي لا يكدره مايكدر صلات الناس من هذا الشر المنكر الذي تخفيه الضمائر وتكتمه القلوب ،وإنما هو الود الصفو والعفو الذي يصدر من النفس إلى النفس ، ويصل القلب بالقلب، ويبلغ الضمير رسالة الضمير .

وتحدثت عن هذا الإخاء الذي لا يأتي من قرابة النسب ولا من اشتراك المصالح ولا من تضامن الناس وتعاونهم ليكيد بعضهم لبعض ويمكر بعضهم ببعض ، وإنما يأتي من الأدب حين يتصل بين الناس شعور صفو بالجمال الصفو وطموح رفيع إلى الحق الرفيع .

وتحدثت عن هذه الصلات الحلوة التي تنشأ بين الناس بريئة إلا من حب المعرفة ، نقية إلا من الترفع عن الصغائر

والتنزه عما يشين الرجل الكريم . وكانت أحاديثها رقيقة رشيقة لا تؤذي السمع ولا تشق على النفس ولا تشغل عما يعرض للناس وما يعرض الناس له من المنافع والمآرب والحاجات ، وإنما تسعى عبيراً أرجاً دقيقاً فتبلغ أعماق الضمير في غير جهد ولا تكلف ، أو تتمثل جمالاً رائعاً بارعاً فيه نضرة الندى ورقة النسيم وابتسامة الشمس المشرقة وهدوء الليل المطمئن وخصب الأرض الغنية وغناء الطير الفرح المرح ، فتملأ العيون بهجة وتفعم النفوس غبطة ، وتشيع في القلوب رضاً وأمناً واطمئناناً ، وتقر في العقول أن الحياة ليست كلها غدراً ومكراً وكذباً وميناً وخداعاً ونفاقاً وكدراً ورنقاً ، وإنما هي شيء ارقى وأنقى وأجمل وأكمل من هذا كله ، وهي خليقة أن تحياها ما دامت الطبيعة تستطيع أن تهدي إلى الناس زهراً نضراً يحمل ابتسامة الشمس ورقة النسيم وعذوبة الندى وهدوء الليل وخصب الأرض ، وربما تحدثت إلى النفوس ألواناً من الحديث لا تستطيع لغات الناس أن تصورها لأنها غامضة أغمض من أن تسعها الألفاظ ، ولأنها واضحة أوضح من أن تنكرها النفوس ، ولأنها تصور من نجوى الشجر والزهر حين تشملهما ظلمة الليل أو يغمرهما ضوء النهار ، وما يكون من مرح الغصون حين يداعبها النسيم ومن جزعها وفزعها حين تعصف بها الريح ، وتصور مسرح الطير حين يسفر الصبح واكتئابها حين يدنو الأصيل ، وتصور ما يكون بين أمواج الأنهار والجداول من مداعبة وملاعبة ومعاتبة ومغاضبة ، وتصور ما تحمل الشمس المشرقة إلى الأرض

من تحية وما تضمر الشمس المحرقة على الأرض من موجدة ، وتصور هذه الرسائل الجلية الخفية التي تحملها أشعة الكواكب والنجوم بين الكواكب والنجوم .

تصور هذا كله وأكثر من هذا كله ، وتحمله إلى النفس في أناة مستأنية ورفق رفيق ، لا تشق عليك ولا على أنفسها بذلك وإنما تسعى أحاديثها من قبلها إليك عفواً في غير مشقة ولا جهد وفي غير تكلف ولا تصنع . وأنت تسمع لها إن شئت وتعرض عنها ان أحببت ، وأنت تعقل من أحاديثها ما تتفتح لـه نفسك وينشرح له صدرك ، ثم لا تشقى بما لم تسمع منها أو تفهم عنها من الحديث ، لأنها لا تدعوك إلى أن تسمع لها ولا تلح عليك في أن تفهم عنها ، وإنما هي قائمة باسمة ، تؤدي رسالتها وتلقي أحاديثها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . فهي تحمل إلى الإنسان رسالة الأنسان ، وهي تحمل إلى الإنسان رسالة الطبيعة ، وهي لا تشق على الإنسان حين تبلغه هذه الرسالة أو تلك ، وهي تنتظر ناعمة مشيعة النعمة من حولها ، حتى إذا سعى اليها الذبول ومشى فيها الذواء استقبلت الفناء راضية كما استقبلت الحياة راضية ، وودعتك بآخر ما ترسل من أرجها وآخر ما تنشر من جمالها ، فتركت في نفسك أثراً كالذي تركته في نفس زوجي وفي نفسي ، فيه كثير من حب وكثير من رفق وكثير من حنان ، وفيه شيء من اكتئاب وشحوب .

وقد فارقنا زهراتنا في السفينة وفيها شيء من حياة صحبتنا أثناء السفر فأحسنت الصحبة ، ولولا الحياء لأوصينا بها أصحاب

السفينة خيراً . وكانت إقامتنا قصيرة ، وكان سفرنا إلى باريس ميسراً ، وإن عرضت لي فيه خطوب سأعود اليها بعد حين .

وأقمنا في باريس ما شاء الله أن نقيم ، وعرضنا فيها لما شاء الله أن نعرض له ، وعرض لنا فيها ما شاء الله أن يعرض لنا من الأمر . ثم أزف الرحل عن باريس ، ولم يبق بيننا وبين ركوب القطار إلا ساعات قليلة ، وقد ودعنا فتانا وأبينا عليه أن يصحبنا إلى المحطة ، وألححنا عليه في أن يفرغ لشأنه ويتزود من الراحة قبل أن يستقبل امتحانه الشاق العسير .

وينصرف الفتى عنا شجاعاً جلداً ، ولا يكاد يغلق الباب من ورائه حتى تنهل دموع وتشرق حلوق وتتقطع أصوات في الصدور . ثم يقبل الزائرون يتبع بعضهم بعضاً وقد كدنا نتسلى عن لوعة الوداع ، ولكن طارقاً يطرق الباب في رفق ، فإذا فتح له سبق العبير صوته ، فنحس بأن الفتى قد أبى أن نفترق على هذا الوداع الأليم ، فاختار زهرات ، وألقى اليها بذات نفسه وأسر إليها أن تحمل حبه وبره إلى أبويه .

وقد عادت الدموع إلى انهلالها وعادت الحلوق إلى شرقها ، وعادت الأصوات إلى تقطعها في الصدور . ولكن جمال الزهرات رد إلى النفوس شيئاً من هدوء ، ولكن عبير الزهرات رد إلى الضمائر كثيراً من أمل ، ولكن نضرة الزهرات ملأت القلوب حباً وحناناً .

وكانت هذه الزهرات فصاحاً كل الفصاحة مسمعات كل

لاسماع عجلات إلى إلقاء أحاديثها وأداء رسالتها والكشف عن أسرارها . فهي تتحدث الينا في غرفة الفندق ، وهي تتحدث الينا في السيارة بين الفندق والقطار ، وهي تتحدث إلينا في القطار ما أمسكتنا اليقظة ، وهي تتحدث إلى أحلامنا حين يستأثر بنا النوم . وهي تتحدث إلينا في جنوا أيقاظاً ونياماً ، وهي تتحدث إلينا في السفينة بين جنوا ونابولي أيقاظاً ونياماً كذلك . وهي الآن وأنا أملي هذا الحديث تنتظرنا في غرفتنا عما بقي فيها من حياة تبث أحاديثها إلى جو الغرفة وما فيها من أداة . حتى إذا اشتملها الذواء تركت من روحها ما يمضي في التحدث إلينا عن فتانا حتى نبلغ مصر إن شاء الله.

وأشهد إني لأنحني عليهن بين حين وحين ، فأشمهن وألثمهن وأنشدهن قول أبي العلاء لحمائمه :

إيه لله دركـن فأنتـن اللواتي يحسن حفظ الوداد

٥

لم نكد نرقى إلى السفينة بعد ان طوفنا في جنوا ساعات حتى ذكرنا أننا لم نرسل البرقية التي كنا نزمع إرسالها إلى القنصلية المصرية في مارسيليا . فقد كنا قدرنا أننا سنصل إلى مارسيليا حين يوشك النهار أن ينتصف ، واستكثرنا أن ننفق فيها سائر النهار وعامة الليل ، ثم ننفق النهار كله بعد ذلك في القطار ونصل إلى باريس حين يتقدم الليل فنقضي في فرنسا يومين كاملين لا نرى فيهما الفتى ، وما أشد شوقنا إلى لقائه ! وما أشد حرصنا على ألا نزعجه عما هو فيه من استعداد لامتحانه العسير .

وكنا قد أصدرنا إليه الأمر من القاهرة ألاّ يخفّ للقائنا ولا يسعى الينا إلا حين ندعوه بالتليفون ، فليس من شك في أنه سيسمع ويطيع وقد تنازعه نفسه إلى لقاء أبويه ، فلنخفف عليه مقدمنا إذن ، ولننبئه بمكاننا بعد أن نستقر في فندقنا .من أجل ذلك أزمعنا أن نخالف عن عادتنا المألوفة فنسافر إلى باريس في قطار الليل لا في قطار النهار كما نحب دائماً أن نفعل.

فليس بد إذن من أن نبرق إلى قنصلنا في مارسيليا ليتفضل فيحجز لنا أماكننا في قطار الليل . وقد أنسينا هذه البرقية لكثرة ما عرض لنا من الأمر في جنوا ، وما ألمّ بنفوسنا وقلوبنا من الخواطر والذكريات . فلما ذكرنا هذه البرقية بعد صعودنا إلى السفينة تقدمنا إلى « فريد » أن يحتال في إرسالها . فما أسرع ما هبط إلى الأرض، وما أسرع ما عاد إلينا ينبئنا بأن البرقية ستصل إلى القنصل بعد دقائق لن تبلغ العشرين !

كذلك قدرنا ، ولكن السفينة وظروف السفر قدرت شيئاً آخر ، فلم نبلغ الساعة التاسعة من صباح الغد حتى كانت سيارة قد انتهت بنا إلى محطة مارسيليا وفيها عرفنا أن قطاراً سيسافر منها إلى باريس إذا انتصف النهار . فنرسل فريداً إلى القنصل ليعلم لنا علمه ونحن نتمنى فيما بيننا وبين أنفسنا ألا يكون حجز الأماكن في قطار الليل قد يسر له . ونجلس إلى قهوتنا ننتظر عودة فريد ، وما هي إلا ساعة حتى يعود ومعه القنصل يقسم جهد أيمانه أن الرسالة لم تصل إليه إلاّ بعد أن لقيه فريد . وهو يعتذر ما وسعه الاعتذار ، ولا يقدر أن تأخر هذه الرسالة ووصولها بعد مرسليها قد صادف هوى في نفوسنا وحقق لنا أملا عزيزاً علينا . وما أقل ما تحقق الآمال في هذه الحياة !

ونحن نجتهد في أن نحتجز الأماكن في قطار الظهر ، ندفع إلى المحطة وتدفعنا المحطة إلى كوك . وقد شكرنا القنصل جهده

ورددناه إلى عمله الكثير ومواعيده الخطيرة سالماً موفوراً لم يلق كيداً ولم يكلم كلما .

ثم لا ينتصف النهار حتى نكون قد أخذنا أماكننا في عربة من عربات « البولمان » من الدرجة الثانية بعد أن ضاقت بنا عربة البولمان في الدرجة الأولى .

وقد أخذنا من الأماكن ما أتيح لنا ، ففرقت مصادفة القطار بيني وبين فريد ، وجلست إلى زوجي نتحدث حيناً ونسكت حيناً ولا تتاح لنا القراءة ، ثم حمل الينا غداؤنا ولما فرغنا منه أوينا إلى شيء من راحة . ولكني لا أكاد أخلو إلى نفسي حتى أذكر ما لقيت من ليلتي وما كان بيني وبين صديقي ذاك العزيز من حديث غريب ، وأحاول أن ألتمس لذلك الحديث تأويلا ولكني أصرف عن ذلك صرفاً رفيقاً عنيفاً في وقت واحد ، فهذا صوت صديقي يبلغ أذني عذباً رقيقاً يشيع فيه الحنان ، وهأنذا أفزع لذلك أشد الفزع ، وأكاد أتحدث عما أجد إلى زوجي . ولكن يداً رفيقة رقيقة تمس كتفي وصوتاً حلواً نفاذاً يقول لي : « لا بأس عليك ! ما الذي يروعك وأنت حديث عهد بي ؟ ألم أكن أتحدث اليك منذ ساعات قصار ؟ » . قلت : « بلى ! ولكنه الحلم فيما قدرت ولست الآن نائماً » . قال : « بل هو الحلم فيما قدرت زوجك لا فيما قدرت أنت . ولولا أنك تحدثت إلى زوجك عما تحدثت إليك وأنها قالت لك ما قالت ، لأنفقت ما شاء الله من الدهر في هذه الدنيا لا تشك في أني لقيتك وتحدثت اليك وسمعت منك وأنت يقظان ،

ولأخفيت ذلك على الناس مخافة أن يتهموك بالكذب أو أن يظنوا بعقلك الظنون . فالآن فسل نفسك أنائم أنت أم يقظ ؟ وتحدث إلى زوجك واسمع منها رجع الحديث ، وضع يدك في جيبك فداعب بها سبحتك تلك التي أهداها إليك صديقنا فلان .. وأخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة . لو قد أتيح للموتى أن يدخنوا لأخذت منك إحدى سجائرك هذه ، ولشاركتك في التدخين ولكن أنى للموتى أن يدخنوا ! وإنما هم ظلال ليست لهم أيد ولا شفاه ولا حلوق . » وأسرعت بيدي إلى جيبي فداعبت سبحتي وأخرجت علبتي وأشعلت سيجارتي وتحدثت إلى زوجي . ولكن يداً رفيقة تمس كتفي وصوتاً حلواً يبلغ أذني وهو يقول : « أنت إذن يقظ لا نائم ، فاسمع مني وافهم عني ، واعلم أني أتحدث إلى قلبك وعقلك جميعاً .

أتذكر أثراً طالما تحدثت إليك به ، لأنني كثيراً ما سمعته من الشيوخ ؟ قلت : « الأولاد مبخلة مجبنة ؟ » . قال : « هو ذاك ! وقد عرفتني قبل أن أرزق الولد وأحتمل من أعباء الحياة ما يحتمل الآباء ، فهل رأيت مني بخلاً وجبناً ؟ » قلت : « اللهم كلا ! » . قال : « فإنك لم تنس أني غاضبت الحكومة في مستهل الشباب ، وغاضبت السلطان غير مرة بعد ذلك ، ولقيت في ذلك من لوم الأسرة ما لقيت ، فلم أحفل بلوم ولم ألتفت إلى عتب ، وإنما أديت الواجب كما كنت أعتقد أنه ينبغي أن يؤدى » . قلت : « هذا حق » . قال : « وقد رأيتني

بعد أن رزقت الولد واحتملت من الاعباء ما يحتمل الآباء ، فهل رأيت مني بخلا ؟ » قلت : « اللهم لا ! » . قال : « فالحمد لله على أن الولد لم يكن لي مبخلة . ولكنك رأيت مني كما رأيت من نفسي جبناً في غير موطن من المواطن » . قلت : « لم أرَ جبناً وإنما رأيت تحفظاً واحتياطاً » قال : « فإن الموتى يحبون أن تسمى الأشياء بأسمائها ، فقد رأيت مني ورأيت أنا من نفسي جبنا في غير موطن من المواطن وقد عبرت عنه بهاتين الكلمتين : التحفظ والاحتياط معتذراً عن نفسي إلى نفسي ومخادعاً لها عن الحق ، فلم يغن هذا عني شيئاً وإنما استحييت من نفسي ومن الناس . ولو قد أظهرتك أسرتي على ما كتبت من المذكرات لرأيت من ذلك ما يرضيك . وإذن فقد كان الولد مجبنة لي ، فأنا أستغفر الله وأرجو أن تستغفر الله لي من هذا الجبن » . قلت : « فقد غفر الله لك لأنك تبت من هذا الضعف توبة صادقة نصوحا » . قال : « لو غفر الله لي لما وجدت ما أجد إلى الآن من ألم وندم وعذاب يمزق الضمير » . قلت وقد أسرعت إلى شفتي ابتسامة حاولت أن أخفيها : « يعجبني هذا التعبير لتمزيق الضمير » . قال : « ألم أقل لك إن الموتى يحبون أن تسمى الأشياء بأسمائها ! إنك ترى في هذا التعبير مجازاً رائعاً ولكننا نحن نرى فيه حقيقة واقعة . فضمائرنا يمزقها الندم تمزيقاً ويفرقها الألم اللاذع تفريقاً . والآن وقد تحدثت إليك عن نفسي أحب أن أتحدث إليك عن نفسك أنت » . قلت : « وماذا تعلم من أمر نفسي ؟ » قال : « أعلم أنها كئيب ، وأعلم

أنها بائسة ، وأعلم أن ألماً لاذعاً يقضها ويمضها ، وأعلم أنك تظهر ما تظهر من إشراق الوجه وابتسام الثغر ورشاقة الحديث ، ثم تنشد إذا خلوت إلى نفسك بيتاً طالما اشتركنا في الإعجاب به :

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع »

قلت : « فإني لا أحب أن يقرأ الناس ما في نفسي » . قال : « هيهات ! تستطيع أن تخفي ذات نفسك على الأحياء ، فأما الذين يعرفونك ويألفونك من الموتى فليس يخفى عليهم من ذات نفسك شيء » .

وهممت أن أتكلم أو بعبارة أدق هممت أن أرد عليه بعقلي لا بلساني ، ولكنه مس كتفي مساً رفيقاً وقال في صوت حلو يشيع فيه الأسى : « لو عرف الأحياء أنهم يؤذون الموتى حين يجزعون أو يفزعون أو يراعون لملكوا أنفسهم ولسخروا من آلام الحياة فإنها أهون من أن تؤذي النفوس ، أو تحزن القلوب. ولكنا نراكم جزعين فزعين مروعين لليسير من الأمر ، فنرثي لكم ونشفق عليكم ، ويؤذينا شقاؤكم في ذوات أنفسكم. ليتكم تعلمون أن للموتى حساً دقيقاً وشعوراً رقيقاً وذوقاً مرهفاً وأن الموت لا يقطع ما بينهم وبينكم من الصلات إلا بعد وقت لا نعرف أقصير هو أم طويل . ألم تقرأ في الآثار والأخبار أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » ؟ . قلت : « بلى » قال : « فإنما يعذب الموتى بحزن أهلهم عليهم لكثرة ما يرثون لهم ، ويأسون لما يجدون من حزن . وإن رثاءنا لكم وإشفاقنا عليكم حين تحزنون

علينا ليعذبنا أضعاف ما يعذبكم ما تجدون من ألم الفراق . ليت الأحياء يعلمون أن الموتى إنما يتركونهم لخير مما هم فيه ، فلا يشيعوهم بهذا الحزن الممض والألم الذي يقض المضاجع وينغص الحياة » . قلت : « فإن الأحياء لا يحزنون على الموتى حين يموتون بمقدار ما يحزنون على أنفسهم لما يجدون من افتراق الشمل وانقطاع الأسباب بينهم وبين من أحبوا » . قال : « ما زلت كما عهدتك مستقصياً متعمقاً غالياً في التحليل والتعليل ، والأمر مع ذلك أيسر مما تظن . فليكن حزنكم علينا أو على أنفسكم ، فان هذا الحزن يؤذينا دائماً أشد الأيذاء وأوجعه . ولقد شهدت اسرتي ثم شهدت أصدقائي بعد أن فارقت داركم الدنيا ، ثم رأيت بكاء الباكين ونحيب المنتحبين ، ثم رأيت اللوعة التي تكتم في الصدور والحسرة التي تضمر في القلوب والدموع التي تمسك في الجفون ، فما أعرف أني لقيت قط من الالم أثناء حياتي كلها مثل ما لقيت في تلك الليلة ثم في ذلك اليوم من بعدها » . قلت : « ولن يؤلمك الحزن المنافق واللوعة الكاذبة والحسرة التي تظهر في الوجود دون أن يكون وراءها شيء » . قال : « هيهات ! إن الموتى ليصفحون عن كثير . ولقد تعلمت في الحياة من الصفح عن المنافقين والإغضاء عما يتكلفون من الرياء والكذب ما أنت في حاجة إلى أن تتعلمه ولو قد تعلمته لأرحت نفسك من عناء كثير . إن المنافق إنما يؤذي نفسه أكثر مما يؤذيك . فلو أنصفته لرحمته وأشفقت عليه. أتظن أنه من الهين أن يكذب الإنسان على نفسه في كل قول يقوله

وفي كل عمل يعمله ، وفي كل خفقة من خفقات قلبه ، وفي كل خلجة من خلجات نفسه ، يفرح قلبه ووجهه كئيب ، ويحزن قلبه ووجهه مبتهج . يقول ونفسه تنكر ما يقول ويعتقد ولسانه ينكر ما يعتقد . وكل ذلك يكتب له ويحصى عليه ، حتى إذا خلا إلى نفسه مزقه الندم إن كان له ضمير ، فإن لم يكن له ضمير فخلوته إلى نفسه نفاق كما أن لقاءه لغيره نفاق ، فهو منافق مع نفسه ، منافق مع الناس ، حتى إذا فارق الدنيا عرضت عليه من نفاقه صور يا لها من صور ! لا تستطيع عقول الأحياء أن تتصورها ، ولا تستطيع قلوبهم ان تصبر لها ، ولا تستطيع لغاتهم أن تصفها . وإني لأرى بعض الأشقياء من الذين أسعدهم النفاق في حياتهم الأولى فأتمنى لهم عطفاً عليهم وبراً بهم أنهم لم يخلقوا .

لا تبتئس إذن لنفاق المنافقين ، ولكن ارحمهم وارث لهم وتمنّ أن يتوب الله عليهم في حياتهم قبل أن يموتوا فيصبح أملهم في التوبة أوهن من نسج العنكبوت . ولنعد إليك وإلى هذا البيت الذي تنشده كلما خلوت إلى نفسك حين يلم بك بعض ما تكره من الأمر . فتظهر الرضا وتضمر السخط وتعلن الابتهاج وتسر الاكتئاب . فهل علمت أن أشمت الناس بالإنسان إنما هي نفسه الخفية التي لا يظهر عليها أحد ، وأن الإنسان خليق أن يتجلد فيما بينه وبين نفسه قبل ان يتجلد فيما بينه وبين الناس ؟ وما يعنيك أن يظن الناس بك الظنون ويقولوا فيك الأقاويل إذا عرفت نفسك وعرفتك نفسك ، فلم تنكرها إذا خلوت إليها ، ولم تنكرك إذا خلت إليك ! . إن شماتة نفس

المرء به هي أصل الشر ومصدر الداء والطريق إلى كل موبقة من الأمر . إن المكروه يلم بك فتجزع له وتضيق بـه وتتكلف للناس صبراً وجلداً ، ولكنك قـد ضعفت في دخيلة ضميرك فلم تخف الجزع على نفسك ، وإذا هي تنظر إليك ساخرة ، ثم تنظر إليك مشفقة ، ثم تنظر اليك مضللة ، ثم تنظر إليك محـاولة أن تسليك وتلهيك ، وإذ ا هي تلتمس لك المعـاذير الـكاذبة والتعـلات الباطلة لتسليك عما تجد من الحزن ، وتحط عنك مـا يثقلك من من الإصر . ثم لا تلبث ان تغريك بالتماس التسلية والتلهية لتنسى ألمك وتتخفف من همك ، فتفتـح لك أبواباً من الشر وتمهد لك طرقـاً إلى الإثم . ثم ما تزال تدفعك من باب إلى باب ومن طريق إلى طريق حتى تنسيك مـا كان يثقلك من الحزن والألم ، ولكن بعد أن تكون ورطتك في آلام وآثام أشد ثقلاً وأعظم نـكراً مما كنت فيه . ولو قـد لقيت المكروه شجاعاً جلداً أمام نفسك ، غير حافل بما يظن النـاس وما يقولون وغير خارج عن طورك ولا مغير لسيرتك فيـما بينك وبين ضميرك ، لاحتفظت بمروءتك كاملة برجولة موفورة ، ولجنبت ضميرك كثيراً من هذا الدنس الذي لا يليق بكرام الناس » .

قلت : « لقد أصبحت بعدي فيلسوفاً » . قال وهو يبتسم : « إن الموت يعلم الفلسفة لكثير من الأحياء فما له لا يعلم الفلسفة لقليل من الموتى ! » ؟

وأقبل فريد ينبئني بأن في العربة مكانين خاليين ساعة وبعض ساعة ، وأنه يستطيع أن يقرأ لي بعض ما حمل من الصحف

والمجلات ، فأتثاقل . ولكن صديقي يقول لي : « لا بأس ! استمع لما سيقرأ عليك فريد أو لا تستمع له ولكن لا ترده خائباً ، فانه يلتمس هذه الفرصة منذ ركبتم القطار . إنه يعرف حرصك على القراءة ، ويريد ان يمنحك منها أكثر ما يستطيع أو أكثر مما تطيق . »

فأنتقل مع فريد وإذا هو ينشر صحفه ومجلاته ويقرأ ما شاء الله أن يقرأ متنقلاً بين الأدب والسياسة والفن ، وأنا أمنحه أذني وأصرف عنه نفسي ، فقد مضيت في أحاديثي مع صديقي لا أكلّ أنا ولا يملّ هو ، وفريد يقرأ ويقرأ.حتى إذا دنا القطار من ليون عدت إلى مكاني . ويسألني فريد عن بعض ما قرأ لي ، فأبتسم وأقول له في صوت يكسره الحياء : لقد نمت عنك وعما قرأت أكثر هذا الوقت . وصديقي يشهد ما نمت عن فريد ولا عما قرأ ، وإنما شغلت بحديثه عن فريد وعما قرأ .

وقد اتصل الحديث بيني وبين صديقي فنوناً وألواناً ، قليل منها يمكن ان يقال ، وأكثرها ينبغي أن ينطوي عليه الضمير .

وأقبل الخادم يحمل إلينا عشاءنا ، وأقبلت على طعامي وعلى حديث زوجي غير منصرف مع ذلك عن هذا الصديق العزيز لحظة ، وإنما هي الحياة المزدوجة التي احياها في كثير من الأحيان ، أمنح جلسائي نصف نفسي وأمنح نصفها الآخر لجلساء آخرين أعرفهم أنا ولا يعرفهم الناس ، أقول لهم وأسمع منهم

وأبادلهم ضروب الحوار والناس يحسبونني معهم قد منحتهم عنايتي كلها كما منحوني عنايتهم كلها . وهل في الحق أن أحداً من الناس يمنح أحداً من الناس عنايته كلها إلا في أقل الأوقات وأشدها ندرة وأقلها تجدداً !

ويبلغ القطار باريس آخر الأمر ، وقد هم الليل أن ينتصف وننهض لنهبط إلى الأرض ، وإذا صديقي يقول لي مداعباً : « أتذكر صديقنا ذاك الذي عاد إلى باريس لأول مرة بعد أن أتم الدرس فيها وقضى في مصر عاماً أو عامين ، فلما بلغ هذه المحطة لم يكد يطأ أرضها بقدميه حتى انكب عليها فقبلها بشفتيه ؟ ! » قلت : « يرحمه الله ويرحمك ! » . قال : « فإني سألقاه في باريس . فالأسباب لم تقطع بينه وبين الحياة الدنيا بعد ، وهو يؤثر باريس ميتاً كما كان يؤثرها حياً » .

وزوجي تلح عليّ في أن أسرع في الخطو حتى لا نعوق من وراءنا من الناس . ولكن صديقي يقول لي في صوته الهادىء الحلو : « لا تعجل فليس في العجلة خير ، انتظر حتى نضرب للقاء موعداً » أتذكر الكلوزيري دي ليلا ؟» . قلت : « وكيف لا أذكر ! » قال : « سنلتقي فيها أثناء زيارتك المقبلة لباريس إن شاء الله ، وسيشهدنا الخادم الذي كان يتلقانا معنياً بنا . أتعرف أنه قد مات ؟» قالت زوجي : «قد بلغنا السلم ، فاستأن حتى أبلغ الأرض وأمنحك يدي» .قال صديقي : « موفقاً إن شاء الله في سفرك وإقامتك » .

وأبلغ الأرض أسعى مع زوجي متثاقلاً أقول لها : « أليس

غريباً أن نكون في باريس والفتى لا يعلم أين نحن ؟ ، وتهم أن تجيب ، ولكنا نسمع صوت الفتى مرتعشاً يقول : يا حبيبي . ثم يلقي بنفسه بين أذرع أربع ثم تكون قبل تؤدي كثيراً من المعاني والألسنة معقودة والقلوب واجفة . ثم أقول للفتى ونحن نسعى : كيف عرفت أننا في هذا القطار ؟ قال سألت عنكما في الفندق فأنبئت بمقدمكما ، لا شوقاً إليكما بل رفقاً بكما ، فليس لكما في الفندق مكان ، وقد احتجز لكما أصحابه غرفة في فندق آخر تقضيان فيه الليل ، فاتبعاني أصحبكما إليه .

٦

سنستجيب لهذه الدعوة ما في ذلك شك : قلت ذلك وأنا أعجب فيما بيني وبين نفسي لهذه الدعوة التي كانت تنتظر في باريس دون أن يعلم الذين ارسلوها إلينا أننا قادمون إلى باريس . أعجب لذلك بعد أن أنفقت يومين متحدثاً إلى صديقي ذاك الذي فارق الحياة . فلا أكاد أودعه عند سلم القطار حتى أعلم بعد قليل أن جماعة أصدقاء جان زي قد أرسلت إلى الفتى دعوة للاسرة كلها ترجو فيها أن نشهد الحفل الذي سيقام في السوربون لوداع جان زي . وقد كان جان زي وزيراً للتربية الوطنية في فرنسا أعواماً متصلة قبل الحرب ، وزار مصر سنة ١٩٣٨ وعرفته في القاهرة واستقبلته في الجامعة وكنت عميداً لكلية الآداب . ثم اتصلت بينه وبيني أسباب من المعرفة لا تبلغ الصداقة ، ولكنها على ذلك ليست بتلك المعرفة العابرة التي لا يكترث لها المتعارفون . وقد لقيته في فرنسا سنة ١٩٣٩ لقاء قصيراً أحسست فيه إلحاحاً في العناية بي قلما يظهره الساسة الفرنسيون لأجنبي زائر لباريس . ثم كانت الحرب وعدت إلى

مصر وشغلت عن جان زي . وإن كنت قد أعجبت به حين أقرت في الصحف أنه استقال من الوزارة ليؤدي واجبه الوطني في ميدان القتال . وألمت الكارثة بفرنسا وكان الانقلاب السياسي ، فشرد أنصار الجمهورية وقبض على زعمائهم ، وكان من الذين قبض عليهم هذا الوزير الشاب .

ثم انجلت الغمرة عن فرنسا ، وعلم الناس أن جان زي قد شقي في سجنه حتى أوشكت الحرب أن تنتهي . ثم أقبل الجند عليه ذات يوم فأخرجوه من السجن وأنبأوه أن الحرية سترد عليه وأركبوه سيارة ومضوا به ، حتى إذا كانوا في بعض الطريق قتلوه ومضوا لوجههم لا يلوون على شيء .

ثم أذهب إلى فرنسا سنة ١٩٤٦ فألقى بعض الأصدقاء من الفرنسيين وأعرف منهم أن صلاة ستقام في معبد من معابد البروتستنت في باريس احتفالاً بذكرى جان زي ، وأن الأسرة والأصدقاء سيقع من أنفسهم موقعاً حسناً أن يروني في هذا الحفل ، فقد كان الفقيد يضمر لي مودة وتقديراً . فنشهد الحفل لا عن مجاملة فحسب ، ولكن عن وفاء فيه كثير من الإعجاب .

ولا يكاد الصيف ينتهي في ذلك العام حتى تهدي إلي جماعة أصدقاء جان زي كتابه الذي انشأه في السجن . فأقرأ كتاباً من اروع ما يكتب الكتاب ويقرأ القراء ، فيه مراجعة النفس ومحاسبة للضمير واستحضار للماضي وأمل في المستقبل وإيمان بمصير الوطن . وفيه صبر على المكروه واحتمال للخطب

وشجاعة على النوائب وثبات على الرأي وإباء للضيم ورفض للترغيب والترهيب واستخفاف بظلم الظالمين واستبداد المستبدين وسخر من غرور المتسلطين وطغيان المتجبرين . وفيه مع هذا كله وفاء للزوج أي وفاء ورحمة للولد أي رحمة وحب للأصدقاء أي حب . وفيه تحليل كأدق ما يكون التحليل لعواطف القلب وخواطر العقل وخلجات النفس وعكوف الضمير على نفسه واتصال الضمير بالضمير . وفيه استعراض لآماله قبل أن يكون وزيراً لأعماله وما اكثر أعماله وأقومها حين كان وزيراً، ونقد لأعمال الذين جاءوا بعده من أعوان العدو وأنصار الاحتلال والدعاة إلى التعاون مع المحتلين ، وأحلام عذاب عما سيستأنف من النشاط حين يوضع عنه الإصر وتحط عنه الأغلال وترد عليه الحرية ويعود إلى أهله ووطنه سالماً موفوراً . وفيه وصف أيّ وصف لظلمة السجن التي تتصل في الليل والنهار ، والتي لا تحد آفاق الأبصار وحدها ، وإنما تحد آفاق الضمائر والعقول أيضاً ، ووصف لما كان ضميره يبذل من حيلة وجهد ليرسل من أعماقه نوراً ضئيلاً يبدد هذه الظلمة بعض التبديد. فمن مداعبة للأمل إلى ملاعبة للحلم ، إلى مخادعة للنفس ، إلى محاسنة لحراس السجن ، إلى مخاشنة لمدير السجن وممثلي السلطان ، إلى رياضة في الغرفة الضيقة حين تغلق عليه أبوابها ، إلى رياضة في الفناء الواسع حين يتاح له السعي فيه ، إلى استثمار لقطعة صغيرة ضيقة من الأرض ينفق الجهد كل الجهد في حملها على أن تخرج من النبات والبقل ما يتيح لعينه بهجة

اولنفسه رضا ويرفه عليه في حياته المادية بعض الترفيه . وفيه بعد هذا كله ذكر لتطوافه في الأرض وسياحته في البلاد .
وقد ذكر مصر بين البلاد التي ذكرها ، وذكر بالخير نفراً من المصريين كنت من بينهم ، فعرفت أن ما كان بيني وبينه من الصلة لم يكن عابراً ، وأن عنايته بي لم تكن صادرة عن عفو الخاطر . وأثر في نفسي أشد التأثير أن يكون لحياتي الضئيلة في نفسه الكبيرة بعض الأصداء .

وأعود إلى فرنسا من قابل فادعى إلى حفل يقام في السوربون للذكراه الثانية ، فأشهد هذا الحفل وأسمع ما شاء الله أن أسمع فيه من أحاديث الساسة والأدباء الفرنسيين وغير الفرنسيين .
وقد تعجلت السفر إلى فرنسا هذا العام ولم يكن يخطر لي أن سأكون منه على ميعاد في هذه الإلمامة القصيرة التي ألممتها بباريس . ولكني لا أكاد أبلغ باريس حتى أجد هذه الدعوة. وحتى أشعر بأن لي مع الاصدقاء الموتى شأناً في هذا العام .
فأسعى إلى الحفل مصبحاً ، وأرى صحن السوربون قد اكتظ بالساسة والأدباء الفرنسيين ، وأعلم ان جثة جان زي قد أنفقت الليل مع شهداء الجامعة في مقبرة الكنيسة التي تجاور السوربون . فلما أصبحت أخرجت إلى الأصدقاء والمحبين والمؤمنين بالحرية ومقاومة الظلم والمنكرين لبغي البغاة وطغيان الطغاة تسمع منهم وتقول لهم . وقد سمعت منهم كثيراً وقالت لهم أكثر مما سمعت . تحدث إليها وزير الحربية الوطنية كما يتحدث الناس إلى الناس ، وتحدثت إليها فرنسا كلها.

بقلوب ممثليها وبالموسيقى كما تتحدث الأم العطوف الرؤوم إلى ابنها البر الوفي .

وقد استمع الناس للناس وهم يتحدثون ، واستمع الناس لقلوبهم وهي تتحدث ، واستمع الناس لهذا الرفات الضئيل وهو يتحدث إلى القلوب والعقول أبلغ الحديث وأعمقه أثراً . وكان الناس يحتفظون في أثناء هذا كله بما ينبغي لهم من الوقار والتجمل والاحتشام . ولكن قوماً أقبلوا يحملون النعش ولا يكادون يلمسونه بأيديهم حتى تندفع موسيقى الحرس الجمهوري فتعزف نشيد المقاومة :

« أيها الصديق أتسمع للغربان تطير طيرانها الأسود فوق سهولنا ! أيها الصديق أتسمع هذه الصيحة المكظومة التي يدفعها الوطن وهو يسلك في الأغلال ... »

هنالك تخرج النفوس عن أطوارها ، وتتخفف من التجلد والتجمل والاحتشام ، وتطلق للدموع حريتها فتنسجم على الوجوه في غير تردد ولا توقف ، ولا يبقى أحد من شهود الحفل إلا اندست يده في جيبه ثم خرجت وفيها منديل يكفكف به دموعاً لا تريد أن تكف . وكذلك خرج جانزي من السوربون تودعه القلوب وتشيعه الدموع ، وتختصر موسيقى الحرس الجمهوري أروع اختصار وأبلغه ما يكون من الحديث بين الأموات والأحياء ، وما يكون من الحديث بين الأوطان والمواطنين مهما تختلف العصور والظروف والأطوار .

وأعود إلى الفندق وقد رضيت عن هذا الحزن الذي أغنى

قلبي ونقى نفسي ، وعن هذه الدموع التي غسلت ضميري مما تعلق به من صلاته بالأحياء . وأشعر أني سأستقبل ما زرت باريس من أجله من العمل « جَذَعَ البصيرة قارح الإقدام » ، كما يقول الشاعر العربي القديم .

٧

ولكن الحياة في باريس عناء وغناء ، لا ينقطع مـا تفـرض عليك من الجهد ، ولا مـا تثير في نفسك من المتاع . ولسـت أتحدث عما في باريس من مشقة مـادية أو لهو مادي ، فلـي والحمد لله صدوف عن هذا اللهو ، ولي والحمد لله من يريحني من مشقة الحياة المـادية . وإنمـا أتحدث عن العناء والغناء اللـذين يتصلان بالقلب والعقـل والذوق ، فهما لا ينقطعان منذ تصل إلى باريس إلى أن تفارقهـا . وأكبر الظن أنهما يصحبانك بعد فراقها لأنك لا تتركها إلا وقد تزودت بالشيء الكثير مما يثير الألم ويذكي اللوعة ، ومـمـا تعلق بـه الآمال وتحيا بـه القلوب. لا تكاد تنظر في الصحف إذا أصبحت حتى ترى فيها ما يدعوك إلى المعرفـة ويغريك بالعلم ويحثك على الاستقصاء . ودع السياسة لأصحاب السياسة أو ألمم بالسياسة إلمامـاً رفيقـاً لتعرف مـا يحـدث في فرنسا وما يحدث في أقطـار الأرض ، فليس للرجل المثقف عن ذلك غنى . ولكنك سترى في الصحيفة التي تنظر فيهـا مـا يدعوك ويغريك ويلح عليك : فهذا نقد لكتاب لا تكاد تنظر

فيه حتّى تشعر بالحاجة الملحة إلى قراءة هذا الكتاب . وهذا نقد لقصة تمثيلية لا تكاد تنظر فيه حتّى تشعر بالحاجة الملحة إلى شهود هذه القصة . وهذا دعاء إلى حفل موسيقي ، وهذا دعاء إلى معرض من معارض الفن ، وهذا عرض لنظرية من نظريات العلم أو لمسألة من مسائل الأدب أو لخصومة من خصومات الفن .

وأنت لا تفرغ من صحيفة أو صحيفتين إذا أصبحت حتّى ترى نفسك حائراً بين ما ينبغي أن تقرأ وما ينبغي أن تشهد وما ينبغي أن تسمع وما ينبغي أن ترى . وأنت تستشير وقتك فاذا هو يضيق أشد الضيق بكل ما تحب . فلا بد لك إذن من أن تختار وما أعسر الاختيار ! ولا بد لك من أن تلغي وما أشق الالغاء ! وأنت تستشير جيبك فيما ينبغي أن تشتري من الكتب وفيما ينبغي أن تشهد من التمثيل وتسمع من الموسيقى ، فاذا هو يقصر عن إسعافك لبلوغ كل ما تحب . فلا بد من أن تختار ولا بد من أن تلغي ، وما أشق الاختيار والإلغاء جميعاً !

وقد تخادع نفسك فتسجل كل ما تحب في دفتر من دفاترك تعجل بعضه وتؤجل بعضه الآخر إلى أن يتاح لك الوقت ويسعفك المال ، وتعلق أملك بأن الوقت سيتيح لك ما تشتهي ، وبأن تدبير المال سيبلغك ما تحب . ولكنك لا تكاد تمسي وتنظر في صحف المساء حتّى ينهار ما بنيت وتنقشع آمالك هباء كما تتبدد سحب الصيف ، فقد أضيفت كتب إلى كتب ، وأضيف تمثيل إلى تمثيل ، وازددت أنت حيرة إلى حيرة وعجزاً إلى عجز فاستسلمت للقضاء ، وأخذت من لذة المعرفة والذوق ما أتاح لك

وقتك ومالك ، وجعلت تخادع نفسك بآمال تعلم حق العلم انهما كاذبة خائنة لا تغني عنك شيئاً ، ولكنك تتمثل على رغمك قول الشاعر القديم :

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمـــل

فهذا عناء لا يخلص منه الرجل المستبصر منذ يبلغ باريس إلى أن يفارقها . أمامه متـاع كثير أكثر ممـا يطيق ، وهو مع ذلك شره يريـد أن يلتهم كل شيء ، فـلا يأخـذ ممـا أمامـه إلا بمقدار مهما يعظم فهو ضئيل . ولكن هـذا المقدار الضئيل يشغل قلبك وعقلك وذوقك ، ويتيح لك من اللـذة العليا مـا يحبب إليك الحيـاة ويبغضها إليك في الوقت نفسه : يحبب إليك الحياة لأنه حلو رائع . ويبغض إليك الحياة لأنه يشعرك شعوراً مراً ممضاً ، بأنك أضيق باعاً وأقصر ذراعاً من أن تبلغ نفسك حاجتها من هذا المتاع النقي الرفيع .

وأنت تقيم في باريس ما شاء الله أن تقيم مقسّماً بـين هذا الفرح والحزن ، موزعاً بين هذا الإقدام الذي يبلغ التهور والإحجام الذي يبلغ الجبن . تريـد أن تحيط بكل شيء وتقصر عن ان تحيط إلا بالقليل . فأنت فرح محزون ، وأنت راض ساخط ، وأنت باسم عابس ، وأنت مقبل صادف ، وأنت من هذا كله فـي عناء ، حتى إذا تركت باريس لم تفصل عنهـا بقلبك كله ولا بعقلك كله ، وإنمـا تركت فيهـا من قلبك وعقلك شطراً قـــد تعلق بهذه اللذات المتصلة الرائعة التي فرضت عليك الحياة وظروفها أن تفارقها على كره منك . وأنت مـع ذلك قـــد جمعت فـي

باريس ما أتيح لك جمعه من الكتب ، لم تستطع أن تقرأه أثناء الإقامة ، فأجلت قراءته إلى وقت السفر وإلى ما بعد السفر حين تؤوب إلى وطنك مسروراً أو محزوناً، فتزيد بقراءته سرورك وتتسلى بها عن حزنك . وأنت تقرأ مسافراً ما وسعتك القراءة ، فتنعم وتبتئس وتبتهج وتكتئب ، حتى إذا بلغت أرض الوطن العزيز لم تكد تستقر حتى يسعى اليك الساعون وتسعى أنت إلى الذين سعوا إليك ، ويأخذك سخف الحياة اليومية من جميع أقطارك ، وإذا أنت لا تجد الوقت للاستمتاع بما حملت من الكنوز إلا أن تسترقه استراقاً وتختلسه اختلاساً وتشق على نفسك بما تطيق وما لا تطيق .

ومع أني أعرف هذا كله لكثرة ما ألممت بباريس وما زلت عنها ، فاني حديث عهد بهذا كله كلما زرت باريس وكلما رجعت إلى مصر . لا أكاد ابلغ باريس حتى استقصي ما فيها من ألوان المتاع العقلي ، فأسعد وأشقى ، وأجد في هذا التردد بين السعادة والشقاء لذة توشك أن تكون مرذولة ، لأني أقارف هذا الإثم وأنا أعلم حق العلم أني أحاول ما لا سبيل اليه ، وأني أجدد نشاطاً قد علمت ألف مرة ومرة أنه لن يغني عني شيئاً ولن يعود علي إلا بالألم والشقاء .

كل هذا وقد ألغيت أعباء الحياة الاجتماعية في باريس إلغاء ، فلم أذكر زيارة من يجب أن أزوره ولا استقبال من يجب أن أستقبله ، ولا ضيقي بالزيارة والاستقبال لكثرة ما يفرضان علي من الحرمان . وأنا مع ذلك رجل من الناس يجب

أن أعيش كما يعيش الناس : يجب أن أزور وأن أزار ، وأن أقول للمزورين والزائرين وأسمع منهم ، وأشاركهم مخلصاً أو غير مخلص فيما يضطربون فيه من الأمور وفيما يخوضون فيه من الأحاديث . وقد أعمل الحيلة وأبذل الجهد وأتكلف فنوناً من الخداع حتى أظفر بالساعات أختلسها من الحياة الاجتماعية اختلاساً ، فأترك زوجي تقوم عني بما تستطيع أن تقوم به ، وأتقدم إلى الفندق في أن يكف عني الزائرين والسائلين ، وأخلو إلى صاحبي أو إلى هذا الكتاب أو ذاك وهذه المجلة أو تلك فأنسى الدنيا وأهلها وأريح الناس وأستريح منهم ، وأحيا هذه الحياة الممتازة التي أخلص فيها للمعرفة. ولكني لا ألبث أن أرى هذه الساعات تنقضي مسرعة وقد أصبت فيها بعض ما كنت أتمنى ، وحيل بيني وبين خير ما كنت أتمنى ، وإذا أنا أشبه بمن نعم أثناء النوم بحلم لذيذ ثم انقطع عليه حلمه فجاءة ، فأفاق وفي نفسه على هذا الحلم حسرات . ولم تتح لي هذه الساعات الحلوة في هذه الرحلة القصيرة إلا مرة واحدة : كان ذلك في يوم من أيام الأحد بذلت في صباحه ما شاء الله أن أبذل من سعة الحيلة وبراعة التصرف حتى استخلصت لنفسي نصف النهار .

ثم أسأل صاحبي أفارغ هو لي فيما استخلصت من الوقت ؟ فاذا هو قد رتب أمره على ان يفرغ لنفسه ولبعض أصحابه ، وقدر اني سأشغل في هذا اليوم كما تعودت أن أشغل في أيام الآحاد . ولكني أتكلف الحيلة حتى على صاحبي ، فاظهر له شيئاً من يسر وأغريه بأن يستمتع بحريته كاملة ، وألقي اليه

في شي من الاستخفاء واللباقة أني لا أكره أن أخلو إلى نفسي ساعات . ولكنه قد فهم عني وأظهر الغباء ، وهو يتكلف كما أتكلف ويتخفف من مشاغله كما تخففت من مشاغلي ، يكره أن أخلو إلى نفسي كما أكره أنا أن أخلو إلى نفسي : وماذا عسى أن تصنع وحيداً إن أقبل زائر أو سأل سائل أو تحدث متحدث في التليفون ؟ فاذا زعمت له أني سأتقدم إلى الفندق في إراحتي من الزائرين والسائلين والمتحدثين قال : وماذا تصنع ان عرض لك ما لا تقدر أن يعرض لك أو احتجت إلى بعض الأمر ؟ ثم ينتهي هذا الحوار إلى أن يعرض علي صاحبي أن يبقى مني غير بعيد يخلو إلى نفسه كما أخلو إلى نفسي ، فاذا احتجت اليه دعوته . وهنالك يستبين له ولي كل شيء ، يفهم عني وأفهم عنه في هذه الصراحة الصامتة التي لا تحب أن تعلن نفسها باللفظ . ولا نكاد نفرغ من الغداء حتى أرانا قد خلونا إلى أنفسنا : صاحبي وكتابه أو مجلته وأنا .

وكذلك رأيتنا في ذلك اليوم وقد خلونا إلى مجلة من المجلات منذ انتصفت الساعة الثالثة إلى أن تقضت للساعة الثامنة ، لم نتركها حتى كدنا نأتي على كل ما فيها . ولكن الحياة الاجتماعية أقبلت علينا مع تمام الساعة الثامنة ، فانصرفنا عن هذه المجلة ولم نعد اليها على كثرة ما فكرنا في العودة اليها . وأكبر الظن أننا لن نعود اليها ، فقد ظهرت مجلات أخرى ليست أقل منها خصباً ولا إمتاعاً ، وسيشغلنا ما يقبل عما

تمضي : وكذلك الحياة : ساعات تقبل بما فيها من الاحداث فتشغل عن ساعات تمضي بما فيها من الأحداث ، وتبقى في النفس من هذه وتلك أطراف تثير فيها كثيراً من حزن وقليلا من سرور .

٨

ولم ألمم بباريس في هذه المرة مستمتعاً بها أو ملتمساً لما يلتمس فيها من الراحة واللذة والفراغ ، وانما أقبلت عليها لبعض العمل؛ وكان هذا العمل متصلاً شاقاً يستغرق كثيراً من الوقت في الصباح والمساء ، كما كان الغدو اليه والرواح عنه يستغرقان كثيراً من الوقت . فكنت على هذه السن المتقدمة أشبه بالتلميذ الذي يغدو على مدرسته مصبحاً وينصرف عنها بعد أن ينتصف النهار ، ثم يعود اليها بعد الغداء لينصرف عنها إذا أقبل الليل .وكان رئيس اللجنة التي كنت أعمل فيها دقيقاً متحرجاً ، يدبر أمر زملائه وعملهم كما يدبر الأستاذ أمر تلاميذه وعملهم . فكان يحرص على أن يبدأ العمل في الموعد المضروب لبدئه وعلى أن ينتهي في الموعد المضروب لانتهائه . ولو كان في مصر لاتخذ لبدء العمل وانتهائه جرساً ينبه إلى البدء والانتهاء . وقد أضيف هذا العمل المعقد المتصل إلى أعباء الحياة الاجتماعية في باريس وإلى مشقة الانتقال وعسر الظفر بالسيارات حين نحتاج اليها ، فلم يترك لي من الفراغ ما يتيح لي قراءة الصحف واستقصاء ما فيها من الدراسات

والبحوث ، ولكني مع ذلك لم أفقد الوسيلة إلى العلم ببعض مـا يصدر من الكتب والتقدم إلى صاحبي في شرائه لعلنا نستطيع أن نقرأه في يوم من الأيام . ولم أعـدم الوسيلة إلى شهود بعـض التمثيل أستريح اليه من جهد النهـار : وشهود التمثيل في باريس ظـاهرة من الظواهر الخاصة التي لا تكاد تلاحظ في غيرها من المدن الكبرى ، فليس يكفي أن تشتاق إلى أن تشهد هذه القصـة أو تلك في هذا الملعب أو ذاك لتظفر بمـا تريد . وإنما أنت مضطر إلى أن تحتال وتحتـاط وتحسن السعي حتى تشهد ما تريد أن تشهد من القصص . فالملاعب في باريس كثيرة جداً مختلفة جداً متمايزة في مذاهبها وأغراضها وألوان ما تعرض على النظارة من القصص ، ولكنها على ذلك كله مكتظة دائماً ، يستبق الناس إلى احتجاز أماكنهم فيها كما يستبقون إلى احتجاز أماكنهم فـي القطارات والسفن والطائرات . ولعلهم أن يجدوا من المشقة في استباقهم إلى شهود التمثيل أكثر مما يجدون من المشقة في استباقهم إلى وسائل الانتقال .

وأعرف جماعة من المقيمين في باريس من الأجانب والفرنسيين كانوا يحسدوننا أشد الحسد ، لأننا شهدنا قصة تمثيلية من قصص موليير ، وحـاولوا هم أن يشهدوها فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا : فأما نحن فقد شهدناها في مصر ، لأن فرقة «جوفيه» حملتها إلينا وعرضتها علينا فيما عرضت من مسرحياتها في الأوبرا الملكية . والباريسيون نظارة كلهم ، قد أصبح شهود التمثيل جـزءاً مقوماً لطبيعتهم ، حتى أصبحوا وكـأنهم يرون الحياة كلهـا

مسرحية تعرض عليهم حين يصبحون وحين يمسون وحين يغدون وحين يروحون . وأيسر شيء يحدث في شارع من الشوارع أو زقاق من الأزقة يدعوهم إلى التجمع والتطلع والاستشراف ، ثم إلى تبادل الرأي وتجاذب الاحاديث وإرسال النكت كأنهم في ملعب من ملاعب التمثيل . وقد أصبح من طبيعة الفرنسيين والباريسيين منهم خاصة إذا التقوا وفرغوا من الحديث عن الجو، أن يستأنفوا الحديث عما شهدوا في ملاعب التمثيل أو دور السينما، وان ينقدوا اللاعبين واللاعبات نقداً مفصلاً لا آخر له، يتناول فنهم وسنهم وأشكالهم وأزياءهم إلى آخر هذه الاحاديث التي لا تنقضي .

على أن هناك قصصاً تمثيلية تثير ألواناً من النقد لها خطرها ، بعضها يتصل بالسياسة فيختصم فيه الناس كما يختصمون في السياسة ، وبعضها يتصل بالادب فيختصم فيه الأدباء دون غيرهم من الناس ، وبعضها يتصل بالأدب والسياسة جميعاً . وقد شهدت قصتين مثيرتين للخصومة السياسية : إحداهما تعرض في بيت موليير وقد أنشئت حين تقدم القرن الماضي قليلاً بعد أن انهزمت الثورة وانهارت الإمبراطورية وعاد إلى فرنسا نظامها الملكي مع شيء من التطور ، وعنوانها : « الاسبانيون في الدانمرك» . وهي قصة متقنة للكاتب الفرنسي الكبير ميريمه ، يعرض فيها مقاومة الاسبانيين خارج وطنهم لنابليون . وتمثيلها رائع ما في ذلك شك. ولذلك يعجب به الناس على اختلاف ألوانهم السياسية ،ولكنهم بعد ذلك يختصمون اختصاماً شديداً في هذه القصة التي عمرت

قرناً وربع قرن : يرى بعضهم وهم المعتدلون أن بيت موليير قد أخطأه الذوق أو قد أخطأ هو الذوق حين عرض هذه القصة ، لأنها تصور انهزام الفرنسيين وشماتة الأوروبيين بفرنسا. ويرى الشيوعيون ومن لف لفهم من المتطرفين أن بيت موليير قد وفق التوفيق كله حين عرض هذه القصة في هذه الأيام ، لأنها تصور انهزام الاستبداد وإخفاق العدوان وانتصار الحرية. وهم فيما يقولون يكرهون الظلم والاستبداد وإن كانت فرنسا هي الظالمة المستبدة ، ويحبون الحرية والاستقلال وان كانت هذه الحرية وهذا الاستقلال خصماً لفرنسا ،فهم يؤثرون الحرية على الوطن . وربما احتاط بعض كتابهم فلم يتردد في أن يعلن أن فرنسا بريئة من الظالمين والمستبدين . وأنها لم تستجب لنابليون راضية وإنما أذعنت له كارهة ، وأنها ابتهجت بسقوط نابوليون ولكنها لم ترض عما كان بعد سقوطه من استبداد ، وهي على كل حال لم تحالف قط مترلنك وشركاءه في الحلف المقدس من أصحاب الرجعية . يغمزون بذلك حكومتهم التي تشارك في حلف مقدس جديد قوامه الإنجليز والأمريكيون . وأنت تقرأ هذه الخصومة في الصحف وتسمعها في الأندية والمجالس الخاصة ، وتعجب لهذه الحياة العقلية التي يتصل فيها الفن بحياة الناس في كل يوم .

أما القصة الثانية فالخصومة فيها أدنى إلى الصراحة وأشد إمعاناً في العنف ، لأنها تتصل بالحياة التي يحياها الفرنسيون في هذه الأيام ، وهي قصة « الأيدي القذرة » للكاتب الفرنسي

المعروف جان بول سارتر ،وكل ما يكتبه جان بول سارتر موضوع للخصومة منذ وضعت الحرب أوزارها . كان الناس يختصمون في فلسفته الوجودية ، ثم اختصموا في آرائه الأدبية ، ثم هم الآن يختصمون في آرائه السياسية منذ أعلن حربه الصريحة على فلسفة الشيوعيين وسياستهم . وهذه القصة نفسها ليست إلا مظهراً من مظاهر هذه الحرب ، فهي تصور فتى من أبناء الأغنياء قد ضاق بالغنى وما يفرضه على أصحابه من هذه الحياة الفارغة التي لا تغني عن أصحابها شيئاً ، فانضم إلى الحزب الشيوعي ، وهجر اسرته وثروته وبيئته ، واندفع في تحمسه للحزب حتى شارك في نشاطه كله ، وأصبح فدائياً مستعداً لتنفيذ ما يصدر إليه الحزب من أمر ، لا يجادل في ذلك ولا يفكر في الجدال ، لأنه وهب حريته وحياته للحزب لا ينتظر على ذلك اجراً ولا يريد جزاء . والحزب يأمره باقتراف جريمة القتل على رئيس من رؤسائه ، لأنه يصانع الظروف ويجري مع ماتقتضيه السياسة فيحاول الائتلاف مع أحزاب المعتدلين . والفتى يتردد في اقتراف الإثم ويطيل التردد حتى يوشك الحزب أن يشك فيه، ولكنه يرى من الرئيس الذي قضى عليه الموت ما يريبه مع زوجته الفتاة ، فيقترف الإثم ويرسل إلى السجن . ويشك الحزب في أنه قتله سياسة أو غيرة . ثم يطلق سراح الفتى ويعود إلى حزبه ، فاذا الحزب يريد أن يتخلص منه ، وإذا فتاة من أعضاء الحزب تحاول الابقاء عليه لعله أن ينفع الحزب في بعض أمره . ولكن الفتى يستكشف تغيراً في سياسة الحزب فهو يستجيب للظروف ويجاري

مـا تقتضيه السياسة ويحاول أن يأتلف مـع أحزاب المعتدلين كما كان الرئيس المقتول يريد أن يفعل ، وإذن ففيم قضى الموت على هذا الرئيس ؟ وقد استيأس الفتى فهو لا يستطيع أن يعود إلى بيئته الأولى ، وهو لا يستطيع أن يجاري الحزب في سياسته المرنة ، وهو لا يعلم لماذا اقترف الإثم ، وهو لا يفهم للحيـاة معنـى ، وهـو من أجـل ذلك يعـرض نفسه لمـا يـدبر له من الموت .

والقصة بعد ذلك تفصل المشكلات السياسية تفصيلاً وتعرض كثيراً من ألوان الخصومة بين المتطرفين والمعتدلين . فليس غريباً أن يختلف حكم الفرنسيين عليها اختلافاً شديداً . فالشيوعيون وأنصارهم ينكرونها ، والمعتدلون وأشياعهم يعرفونها ، ولـكن أولئك وهؤلاء يشهدونها على كل حـال . فريق يشهدها معجبـاً بها ، وفريق يشهدها ساخطـاً عليها . والفريقان يختصمان فـي الصحف ويختصمان في الأحـاديث . والأجنبي يرى هذا كلـه فيحمد الحرية ويطمح اليهـا ويسأل نفسه : أيمكن أن يمثل مثـل هذه القصة في بـلد خاضع للنظام الشيوعي ؟ أيمكن أن تمثل قصة تخاصم الفاشية والنازية في بلد خاضع للنظام الدكتاتوري ؟ ثم يحمد الديمقراطية الصحيحة التي تكفل للأفراد والجماعات مـن الحرية مـا يتيح لهم أن يعتقـدوا ويعلنوا ما يعتقدون في غـير مضارة ولا تعرض لتحكم السلطان ، ويود لو أتيح لهذه الديمقراطية السمحة الحرة من سعة الأفق وإيثار الخير ما يمكنها من تحقيق العدل الاجتماعي إلى جانب الحرية . فالمشكلة التي شقيت بهـا

الإنسانية وما زالت تشقى وستشقى بها فيما يظهر زمناً طويلا ، هي تحقيق التوفيق بين الحرية والمساواة دون أن يضحي بإحداهما في سبيل الأخرى . والشيء المهم هو أن إقبال الفرنسيين والباريسين منهم خاصة على شهود التمثيل والسينما وما يعرض في الملاهي من أنواع الرقص والغناء والموسيقى ، ينشىء لهم جواً حراً سمحاً طلقاً يتيح لهم أن يرتفعوا عن كثير من الصغائر ، وأن يتنزهوا عن كثير من النقائص ، وأن يستمتعوا بمزاج معتدل يعصمهم من الشطط في تقدير الأشياء والحكم عليها ، ويحول بينهم وبين هذا الفراغ الذي يورث الأثرة ويدفع إلى الغرور ويورط في كثير من الرذائل والآثام . فالرجل الذي يعمل وجه النهار ليرضي حاجته إلى العمل ، ويقرأ آخر النهار وكلما يسرت له القراءة ليرضي حاجته إلى المعرفة ، ويشهد التمثيل ومعارض الفن ويسمع للغناء والموسيقى ليرفه على نفسه ويرضي ذوقه — هذا الرجل خليق ألا يفرغ لنفسه هذا الفراغ المنكر ، وألا يؤثر نفسه هذا الإيثار البغيض وألا يهدر حق غيره كما لا يحب أن يهدر أحد حقه ، وأن يكون رأيه في الناس وفي الحياة معتدلاً مستقيماً غير ذي عوج ولا التواء . وكل ذلك ينشىء بيئة سمحة قوامها الأدب والمجاملة وحسن العشرة وكرم المخالطة .

وقد تثار الخصومات الكثيرة في هذه الحياة. فالناس يختصمون دائماً ، تفرض منافعهم عليهم هذا الاختصام ، ولكنه اختصام لا يفسد الحياة ، ولا ينغص العيش ولا يدفع إلى المكر ، ولا

يغري بالكيد ، ولا يغير صداقة الأصدقاء ، ولا يجعل بعض المواطنين لبعض عدواً . وما أكثر ما يختصم المختصمون في مثل هذه البيئة أشد الاختصام وأعنفه في الصحف أو في البرلمان أو في غير الصحف والبرلمان من وجوه النشاط ! ولكنهم على ذلك يلتقون وقد ألقوا عن أنفسهم ثقل الخصومة حين ألقوا عن أنفسهم ثقل العمل ، وخلصت قلوبهم وعقولهم وضمائرهم لما يكون بين المثقفين حين يستقبلون مشهداً من مشاهد الفن أو موضوعاً من موضوعات الأدب أو خاطراً من خواطر الفلسفة .

والشيء الذي لم أفهمه قط ولم أسغه قط ، هو أن الذين ينهضون بالأمور العامة عندنا قد ذهب أكثرهم إلى أوروبا وعرفوا من حياتها ما أعرف ، فليست هذه الحياة مقصورة على فرنسا وإنما هي شيء شائع في البلاد المتحضرة الراقية ، وهم يعجبون بهذا الذي أعجب به ويتحدثون عنه فيطيلون الحديث ، ولكنهم حين يفرغون لما يفرغون له من الأعمال العامة ينسون ما رأوا وينسون ما يجدون من الاعجاب والرضا ، ويستقبلون نشاطهم بشخصيات أخرى حظها من الحضارة المترفة المثقفة قليل ضئيل ، فهم يختصمون كما كان الناس يختصمون في بعض البيئات القديمة لا يرعون في خصومتهم رفقاً ولا أناة ولا ذوقاً ولا وقاراً ، وإنما هو العنف والإمعان في العنف حتى يصلوا إلى أبعد غاياته مهما تكن النتائج ، يخلطون أنفسهم بأعمالهم وأعبائهم ، ويسرفون في الإمعان بأنفسهم حتى يقدروا أنهم إذا نهضوا بالسياسة وأعبائها فانما ينهضون بأمورهم الخاصة لا بأمور غيرهم من

الناس .

ولست أعرف أشد غروراً ولا أعظم إمعاناً في الحمق من رجل يعيش في العصر الحديث ويمارس الأعمال العامة على النحو الحديث ثم لا يفرق بين شخصه وبين أعماله العامة ، ولا يقدر أنه حين ينهض بالمنصب أو يمارس السياسة ليس إلا وكيلا للشعب ينوب عنه في تدبير بعض أمره نيابة موقوتة قد تقصر وقد تطول ولكنها موقوتة على كل حال . ولو قد فكر الناهضون بالأعمال العامة هذا النحو من التفكير لأراحوا أنفسهم ولأراحوا الناس من شر كثير وعناء ثقيل . ولكن يظهر أن الحضارة لا تكتسب بالاختلاف إلى الجامعات والحصول على الدرجات والألقاب ، وإنما هي ثقافة يجب أن تتثقف بها النفوس وان تتغلغل في أعماق الضمائر ، وأن تؤثر أشد الأثر فيما يعمل الناس وما يقولون . وأكاد أعتقد أن الحضارة والثقافة في بيئتنا ما زالتا أشبه شيء بالطلاء الذي لا يستطيع أن يثبت لحر الشمس وتقلب الجو ، ولا يكاد يمتحن حتى يذوب ويتكشف عما وراءه من هذه النفوس القديمة التي لم تهذب تهذيباً أصيلاً ، وإنما هذبت تهذيباً متكلفاً طارئاً لا يقدر على مقاومة المنافع والآراب والأحداث . ولم أشهد في باريس هذا اللون من جد التمثيل وحده ، وإنما شهدت لوناً آخر من هزل التمثيل ، فضحكت مع الناس حين كنت في الملعب ، وضحكت وحدي حين خلوت إلى نفسي ، وما زلت أضحك بين حين وحين كلما ذكرت هذه القصة ، وكثيراً ما اذكرها في مصر .

وما أريد أن ألخص القصة ، فلست أملي فصلاً في النقد ، وإنما أريد أن أعود إلى ما كنت فيه من الحديث عن هذه الحياة السمحة التي يحياها المتحضرون الذين هذبت عقولهم وقلوبهم تهذيباً أصيلاً ، فنظروا إلى الحياة وأحداثها نظرة فيها كثير من الرفق والإسماح والبراءة من التحرج والتزمت والتضييق على النفس وعلى الناس . فالقصة التي شهدتها تعرض على النظارة مجلساً من مجالس القضاء يحاكم فيه بريء قد اتهم بأنه قتل زوجه ليخلص لحب خليلته . وخليلته متهمة بأنها قد شاركته في بعض هذا الإثم . وقد جلس القضاة وجلس المحلفون وجلست النيابة والمحاماة ، وجعل رئيس المحكمة يدعو الشهود ويسألهم ويحاورهم ويخلي بينهم وبين حوار الاتهام والدفاع . وليس لصاحب القصة من هذا كله أرب إلا أن يرفه على النظارة بإضحاكهم من بعض المظاهر الفكاهية التي لا تخلو منها مجلس من مجالس القضاء . فالرئيس الشيخ ذكي لبق ماكر ماهر، ولكن الشيخوخة قد اشتطت عليه ، وظهر أثر ذلك في كلامه حين ينطق وفي ملاحظاته حين يلاحظ على الاتهام والدفاع ، وفي حواره للشهود في شيء من السأم والاستخفاف من ورائه الجد كل الجد . والنيابة مندفعة في تكديس التهم بعضها فوق بعض . والمحاماة مندفعة في تزييف هذه التهم بما يساغ وما لا يساغ . والشهود مختلطون فيهم كثير من الخوف وكثير من الجهل وكثير من الدعابة مع ذلك . والنظارة يضحكون من هذا كله ومن هؤلاء جميعاً . حتى إذا أقبلت أم المتهمة وزعمت

للمحكمة ان خليل ابنتها ليس وفياً لخليلته ، وأنها رأته يداعب فتاة أخرى ، ثارت الغيرة بين العاشقين ، وحاول الرئيس أن يرد الأمر إلى الهدوء فلم يزده إلا اضطراباً واختلاطاً ، حتى صار من العسير أن تمضي المحكمة في المحاكمة ، وصار من العسير أن يمضي الممثلون في التمثيل ، فقد اختلط الأمر على المحكمة ، وأغرق النظارة في الضحك ، حتى لم يبق بد من رفع الجلسة وإرخاء الستار .

فهذا فصل من فصول هذه القصة يضحك النظارة فيه من القضاء دون أن يكون في ذلك غض من قدر القضاء أو استخفاف به ، ودون أن يجد القضاء في ذلك حرجاً أو جناحاً . وليس من شك في أن كثيراً من القضاة على اختلاف درجاتهم ومنازلهم قد شهدوا وما زالوا يشهدون هذه القصة التي لا تزال تمثل فيما اعتقد ويضحكون كما يضحك غيرهم من الناس، لا يجدون بذلك بأساً، ولا ينكرون على الكاتب والممثلين أنهم يسخرون من القضاء على هذا النحو البريء .

فأين نحن من هذه الحرية السمحة ؟ وكيف لو عرض كاتب ومثلت فرقة مجلساً من مجالس القضاء غالياً في الدعابة والفكاهة كما يقتضي الفن وكما تقتضي حاجة النظارة إلى التسلية عن أنفسهم ؟ ألا تزلزل الأرض بالكاتب والممثلين جميعاً ؟! ومع ذلك فهذا أيسر ما يشهد الناس من الأمر في باريس . فرجال السلطات الثلاث عرضة للفكاهة المتصلة والتندر الذي لا ينقضي ، لا يسلم من ذلك شيخ ولا نائب ولا

وزير ، بل لا يسلم من ذلك رؤساء الجمهورية أنفسهم . فأما أساتذة الجامعات وكبار رجال التعليم فالتندر بهم مألوف .ولم لا ،وهم يتندرون بأنفسهم وطلابهم ، وتلاميذهم يتندرون بهم في الغيب والشهادة ، لا يجدون في ذلك بأساً ، ولا يضيق بذلك منهم صدر استاذ أو مدير . فأين نحن من هذا كله ؟ ! وكيف لو تندّر اصحاب المزاج بوزرائنا وساستنا وأساتذتنا ؟! والغريب من الأمر ، بل الطبيعي من الأمر ، أن تندر المتندرين وتفكه المتفكهين وعبث الناس بالذين ينهضون بالأعباء العامة ، لا يغض من هيبة السلطان ولا يعرض الساسة والقادة والزعماء إلا للحب والتقدير ما استحقوا الحب والتقدير. والأصل في هذا كله أن لكل لون من ألوان العمل الإنساني ناحيته الهازلة ، وان الشعب في البلاد الحرة يرى أن الحياة العامة ملك له هو لا للساسة ولا للقادة . وما دام الواجب الوطني المدني يقضي عليه أن يحتمل جد الحياة العامة ويشقى بهذا الجد أحياناً في نفسه وماله ، فان الحق الوطني المدني له أن ينعم بما في حياته العامة من خير ، ويلهو بما في هذه الحياة العامة من فكاهة أو دعابة أو مزاح . والمهم هو أن حياة الشعب ملك للشعب ، يبتئس بها حين تفرض عليه الابتئاس ، ويبتهج بها حين تتيح له الابتهاج ، ويضحك منها حين تثير في نفسه الضحك. وليس للناهضين بأعباء هذه الحياة أن ينكروا ذلك أو يضيقوا به ، فهم حين يقبلون النهوض بأعبائهم لا يشترطون على الشعب ألا يضحك منهم حين تدعو سيرتهم للضحك ، وألا يتندر بهم حين تدعو سيرتهم

للتندر . وكما أن الكاتب والشاعر والفيلسوف والعالم لا يشترطون على قرائهم قبل أن يقدموا إليهم آثارهم أن يعفوهم من النقد، فالساسة والقادة والموظفون لا يشترطون على الناس قبل النهوض بأعمالهم ان يعفوهم من النقد سواء كان هذا النقد مراً أم حلواً وجداً أم مزاحاً . كذلك يحيا الناس في البيئات التي استقرت فيها الحضارة حتى ثبتت أصولها في أعماق النفوس . فأما البيئات التي تجتلب الحضارة اجتلاباً وتشتريها بالدراهم والدنانير وتتزين بها في الشوارع لتتخفف منها في الدور ، فهي بيئات لا تحتمل دعابة ولا فكاهة ولا مزاحاً ، وإنما هي متحفظة متحرجة متزمتة ، لا تفرق من شيء كما تفرق من النقد ، ولا تفزع من شيء كما تفزع من الدعابة ، وهي تكلف القوانين من حمايتها ما تطيق وما لا تطيق ، فإن لم تسعفها القوانين التمست حمايتها في التحكم والظلم والاستبداد .

٩

سيدي العزيز :

فرغت الآن من قراءة كتابك الذي حمل إليّ مع طعام الإفطار والذي قطع الطريق بين القاهرة وباريس في أقل من يومين ، فقد يظهر أنك أسلمته إلى البريد قبل أن تطير الطائرة بوقت قصير جداً . وقد طارت الطائرة أثناء الليل ووصلت مصبحة ، ولم يستأن سعاة البريد بكتابك ، فأقبل يسعى نشيطاً مرحاً كأنما يباهي بهذه السرعة التي جاب بها آفاق السماء ؛ وقد تلقيته لا مرحاً ولا نشيطاً ، فلم يبعد عهدي بمصر بعد ، ولم أحس الشوق إلى ما ترسل إليّ من الكتب والرسائل . وأكاد أقول إني ما زلت مثقلاً بما كنت أحمل فيها من الأعباء لم أتخفف منه إلى الآن . وكيف أتخفف منه في هذه الأيام القليلة التي أنفقتها منذ تركت الاسكندرية ، وأنت تعلم أن حياة يوم واحد في مصر تعدل حياة أيام كثيرة في فرنسا ، لا لأننا نعمل في مصر ونغنى أكثر ما نعمل ونغنى في فرنسا ، بل لأننا لا نعمل شيئاً أو لا نكاد نعمل شيئاً ، وان ما يصدر عنا من

الحركة والنشاط ليس بذي غناء . وليس شيء أثقل من الحياة الفارغة ، وليس شيء أخف من الحياة المليئة . والحياةالفارغة عندي هي التي يستقبل فيها الإنسان الصبح المشرق والليل المظلم دون أن يضيف إلى علمه علماً وإلى معرفته معرفة ، ودون أن يحدث من الآثار ما ينفعه وينفع الناس . فاذا أضفت إلى هذا الفراغ الذي يملأ حياتنا في مصر — إن صح أن يملأ الفراغ شيئاً — هذا السخف الكثير المختلف المختلط الذي يملأ يومنا وليلنا أيقاظاً ونياماً ، عرفت أني لست غالياً ولا متكلفاً حين أقول إني لم أتخفف بعد من ثقل الحياة المصرية ، ولم أشتق بعد إلى رسائلكم وكتبكم . وصفني بما شئت من الغلظة والجفوة ، وقل فيّ ما أحببت من قسوة القلب والنبو عن الذوق ، فإني أحدثك بذات نفسي ، لأني تعودت أن أحدثك بذات نفسي لا ألتوي عنك بما أجد في أعماق الضمير . فقد تلقيت كتابك إذن معرضاً عنه ، وقرأته لا أقول ضيقاً به ، ولكني أقول إني قرأته في فتور . ثم سألت نفسي أأكتب إليك أم أطوي عن الكتابة كشحاً ، كما يقول الجاحظ . ثم أقبلت على الكتابة إليك فاتراً كما أقبلت على قراءة كتابك غير نشيط . وأنت تعتب عليّ بأني لم أؤذنك بيوم السفر وساعته لتسعى إلى لقائي وتخف لوداعي، وتسألني لماذا طويت عنك موعد السفر . يا عجباً كل العجب ! فهل تذكر اني أنبأتك قط بإزماع السفر حين كنت أزمع السفر ؟ وهل تذكر اني أنبأتك قط بيوم السفر وساعته ؟ أما أنا فأذكر أني كنت ألقاك فيما مضى مصبحاً وممسياً وأسمع حديثك في

التليفون بين ذلك ، لا تثقل عليّ زيارتك ولا يثقل عليك لقائي ، ولا يضيق أحد منا بحديث صاحبه مهما يتصل ، ولا يحتمل أحد منا سكوت صاحبه مهما يقصر . وكنت تعلم من أمري كله مثل ما أعلم ، وكنت تعلم من بعض أمري أكثر مما أعلم ، فأنت متصل بالناس تسمع ما يقولون عني وما يقولون فيّ ، وأنا منقطع عن الناس لا أكاد أعرف من أمرهم إلاّ ما يحمل إليّ في داري التي لا أتركها إلاّ قليلاً .وكنت أنت صلة بيني وبين الناس تحمل إليّ أنباءهم ، وتحمل إلى بعضهم أنبائي . ثم أقبلت أيام أسفر فيها الصبح وغشي فيها الليل ولم ألقك في ليل ولا في نهار . وقد أنكرت منك ذلك أول الأمر فسألت عنك لأنني خشيت أن يكون بعض المكروه قد أقعدك عني ، فعلمت منك أنك موفور لا بأس بك ولا بأس عليك ، وإنما شغلت ببعض ما يشغل به الناس . وانتظرت أن تنجلي عنك هذه الغمرة الطارئة ، ولكنها لم تنجل ، وإنما تكاثفت وتتابعت وركب بعضها بعضاً ، وإذا اليوم يمضي وفي أثره اليوم وفي أثرهما الأيام لا ألقاك ولا ألقى من يلقاك ، ولا أعرف من أمرك ولا اسمع من نبأك شيئاً . هنالك علمت أنها القطيعة ، ثم علمت انه الانحراف الذي تدفع إليه ظروف الحياة بعض الناس أحياناً . فصبرت نفسي على ما تعودت أن أصبرها عليه من قطيعة الأصدقاء وانحراف الأخلاء ونضوب الود في قلوب الإخوان. ثم مضيت في أمري أصعد في نجاد الحياة وأصوّب في وهادها ، وأنت عني لاه ساه وأنا عنك لاه ساه ، لا يسأل أحد منا عن

صاحبه ، ولا يبتغي احد منا إلى صاحبه وسيلة أو سبباً . ثم أقبلت على هـذا السفر كما أقبلت على كثير غيره من الأمر ، لم أوذنك بشيء لأنني لم أتعود أن أوذنك بشيء . وهـا أنت هـذا تكتب إليّ تتجاوز في كتابك العتاب إلى اللوم . فمـاذا حـدث في مصر من الأحداث ؟ ما زالت أمور مصر تجري على النحو الذي تركتها تجري عليه ، لم يتغير منهـا شيء ، ولم يبد للمنافع فيهـا والآراب وجه جديد . ما سؤالك عني بعد نسيانك لي ؟ ! وما تجنيك عليّ بعد هـذا الإغضاء الطويل ؟! أتريـد أن أفسر لك غامض قلبك وخفي نفسك وما التوى عليك من ذات ضميرك لعلك تجد في هذا التفسير شفاءلبعض ما يؤذيك من هـذا الـداء الدخيل منذ أيام ؟ أتريد أن أتحدث إليك بأني عاتب عليك لأنك أغضيت عني وقطعت من أسبابي ما كان حقه أن يوصل ، وأن أفصل لك أعراض هذه القطيعة ومظاهر هذا الإغضاء ، وأن أحصي عليك بعض ما أتيت مما لا تحب ولا أحب ،فأكون أشبه بالطبيب حين يستكشف الداء ويشق على المريض بعلاجه ولكنه يبرئه آخر الأمر ، أو أشبه شيء بالجراح حين يفتح الدمل فينقيه ممـا جمع من الصديد ؟ أرح نفسك يا سيدي ، لست طبيبـاً ولا جراحاً ،ولست أحسن علاج النفوس المريضة ولا شفاء القلوب المدخولة ، ولست أكره شيئاً كما أكره التنقيب في ضمائر الناس. لن أعتب عليك ، فإنك لم تدع إلى العتاب سبيلاً . ولن ألومك فـإنني لا ألوم إلا من أعتد بـه.وقد كنت أعتد بك حين كنت تمنحني ودّك .فأما وقـد استرددت هـذا الود وآثرت به قوماً

رأيتهم أحق به وأجدر ، فإنني أهنئك بأصدقائك الجدد ، وأهنيء بك أصدقاءك الجدد ، وأرجو ألا يعرض بينك وبينهم من الأحداث ما يصرفك عنهم أو يصرفهم عنك، ومن يحولك إلى غيرهم أو يحولهم إلى غيرك كالذي عرض بينك وبيني من الأحداث . ومن يدري هل مما يلائم نفسك أن تحدث صداقة جديدة بين حين وحين ؟ ففي كثير من الناس ملل، وفي كثير من القلوب سأم . والناس يبدلون ثياب أجسامهم ويغيرون ألوان ما يأكلون ويشربون ، فما عليهم أن يبدلوا ثياب قلوبهم ! وقد قال الراجز العربي منذ قرون طوال :

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

فالبس يا سيدي للحال التي نحن فيها لبوسها . ولبوسها يسير جداً قريب جداً رقيق جداً ، هو أن نوادّ الأخلاء ما نفعتنا مودتهم ، وأن نحتملهم إذا لم يجلب علينا احتمالهم مضرة أو لم يضيع علينا منفعة ، وأن ننسل من ودهم كما تنسل الشعرة من العجين إن آنسنا من هذا الود جلب مضرة أو تضييع منفعة أو إغضاب من لا ينبغي أن نتعرض لغضبه من الناس . وأي شيء أيسر من ان تصفو لي اليوم وتكدر لي غداً ، ثم تعود إلى مثل ما كنت فيه من الصفو ، ثم ترتد إلى مثل ما كنت فيه من الكدر ، وتجعل نفسك على هذا النحو كرة تقذفها من الصلة إلى القطيعة ومن القطيعة إلى الصلة ، وترجحها بين القرب والبعد ، وبين الوصل والصد ، وبين الرضا والسخط . كل ذلك يسير قريب ملائم للحال التي نحن فيها ، ولكنه لا يلائمني ، وإنما يخالف

طبعي كل المخالفة . وما أكثر ما كنت أغيظك بترديد هـذا البيت :

حيّ الحمول بجانب الرمل   إذ لا يلائم شكلها شكلي

فاسمعه منّي للمرة الأخيرة ، واعلم أن شكلك لا يـلائـم شكلي ، وجنبني ما تعلم أنني أكرهه أشد الكره من الـريـاء والتكلف والنفاق ، واقبل أو لا تقبل تحية خالصة يحملني الأدب على أن أضعها في آخر هذا الكتاب ...

ولكني لم أكد أفرغ من إملاء هذه الرسالة حتى رأيتها ثقيلة ممضة قاسية ، فتقدمت إلى صاحبي أن يطويها فيما يطوي . وما أكثر ما يطوي من الأوراق !

١٠

هوّن عليك يا سيدي ، وثق بأني لست لائماً لك ولا واجداً عليك ، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وأكرم ما ينبغي للرجل ذي المروءة من المنازل أن يتأدب بهذا الأدب الكريم الرفيع فلا يكلف الناس ما لا يطيقون ، ولا يشق عليهم بما لا يستطيعون أن يتحملوا من الجهد . ونحن في أيام تفرض على الذين يريدون الحياة اليسيرة السهلة ان يؤثروا العافية ويتجنبوا المصاعب ويتخففوا من الأثقال . والحياة التي نحياها في هذه الأيام أشبه شيء بالبحر المضطرب الذي تعصف به الريح ، ويصطخب فيه الموج اصطخاباً يوشك أن يكون هديراً ، ويتعرض من يعبره للهول كل الهول إذا لم يكن خفيفاً رشيقاً يميل مع الريح كل مميل وينحرف مع الموج كل منحرف ، فإن لم يفعل ذلك هوى إلى القاع أو أوشك أن يهوي إلى القاع .

فلا تلم نفسك ، ولا تحسبني ألومك على أنك قد تخففت من بعض الثقل ، وتحررت من بعض القيد ، وأعفيت نفسك من

بعض هـذا الواجب الذي يفرضه على الناس ذلك الشيء القديم العتيق البالي الذي نسميه الأخلاق . الأخلاق شيء رث حقاً قد أكل الدهر عليه وشرب ، وأبلاه تصرف الأيام وتقلب الاحداث وتتابع الخطوب ، حتى أصبح تعلة العاجزين وتكأة الخاملين الخامدين الذين لا يبغون في الأرض تقدماً ولا علواً ، والذين لا يحسنون مجاراة الأيام وملاينة الحوادث الهوج .

هون عليك يا سيدي ! لقد كان ابن الزيات يقول إن الرحمة خور في الطبيعة ، فلنقل مع ابن الزيات ان الوفاء قصور في الهمة وفتور في العزيمة وفساد للمزاج . ولنقل مع ابن الزيات وأمثاله إن إخاء الإخوان وصداقة الأصدقاء وود الأخلاء كل ذلك حسن إن أدى إلى منفعة أو ذاد مضرة أو وقى من مكروه ، فاما إن ضيع المنفعة وجلب المضرة وورط في المكروه فهو الحمق الاحمق ، وهو العجز العاجز ، وهو الخصلة التي تدل على أن صاحبها لا يصلح لشيء ولا يرجى لشيء ولا ينتظر منه شيء . وضع نفسك حيث تريد لك الأخلاق أن تكون ، ووازن بين حالك إن فعلت وبين حالك بعد أن لم تفعل . إن صديقك الذي كنت تعرفه وتألفه وتركن إليه يجفو قد نبت به الدار وتنكّر له الذين يملكون النفع العاجل والضر القريب . فلو قد وفيت له وأصفيته مودتك وصدق إخائك ، لجفاك من يجفوه ولتنكر لك من يتنكر له ، ولنبت بك الدار التي نبت به ، ولانصرفت عنك المنافع التي انصرفت عنه ، ولأقبلت عليك المحن

التي أقبلت عليه ، ولأقمت بين قومك في دار قلىً لا تجد فيهما من يعرفك ولا من يألفك ولا من يتقرب إليك ولا من يبتغي اليك الوسائل ويصل بك الأسباب . إذن لخلوت إلى نفسك في أكثر الوقت ، ولالتمست ما تحب فلا تجد منه شيئاً ، ولفررت مما تكره فلم تجد إلى الفرار منه سبيلاً . وأنت رجل تحب الدعة وتؤثر السعة وتطمع إلى خفض العيش وبسط الرزق وامتداد الجاه واتساع السلطان ، لا تستطيع أن تصبر نفسك على الضيق ولا أن تروضها على التواضع ، ولا أن تقنعها بما قسم لها ، فهي دائماً طامعة طامحة ، وأنت دائماً شقي بطمعها وطموحها تتكلف في سبيلها من الجهد ما يطاق وما لا يطاق ، وتأتي في سبيلهما من الأمر ما يباح وما لا يباح ، وترضى في سبيلهما بالمنزلة التي لا يرضاها من كرمت عليه نفسه فأبى أن يخضعها للضيم ويذلها لتحكم المتسلطين .

هوّن عليك يا سيدي ! لقد عرفتك حق معرفتك وبلوتك أحسن ما يبلو الإنسان الإنسان . وعرفت فيك هذا الطمع الذي لا حد له ، وهذا الطموح الذي لا ينتهي إلى غاية ، وعرفت فيك الضعف عن مقاومة الشهوة حين تعصف بك ، وعن الامتناع على المنفعة حين تلح عليك . وأنت رجل قد نشأت محروماً مأزوماً مكلوماً هيناً على الناس ، وقد آذاك هذا كله في نفسك أشد الإيذاء ، فنشأت وفي نفسك نزوع إلى الانتقام وجشع إلى الظفر بالثأر . شقيت ورأيت قوماً حولك يسعدون ، فرأيت في سعادتهم إهانة لشقائك ، وأضمرت لهم في نفسك حقداً دفيناً وبغضاً كميناً

وعداء مبيناً ، وأزمعت أن تجاهد في الحياة حتى تنعم كما نعموا وتسعد كما سعدوا وتصبح لهم ضريباً . فلما بلغت من ذلك مـا أردت لم تفتر همتك لأنها لا تعرف الفتور ، ولم تقعد عزيمتك لأنها لا تألف القعود ، ولم تضق آمالك لأنها لا تحب الضيق ، وإنما أزمعت أن تفوت القوم بعد أن أدركتهم ، وأن تستعلـي عليهم كما استعلوا عليك ، وما زلت تجد وتكد حتى ظفرت من ذلك بالشيء الكثير ، تظهر للناس وداً وتضمر لهم عداء وحقداً. لم تخلص نفسك قط لصديق ولم يصف قلبك قط لخليل ، وإنمـا أنت رجل متكلف دائماً تتودد لمن خفت وتتودد لمن أكبرت وتتودد لمن رجوت ، حتى إذا أمنت من تخاف ، وناظرت من تكبر وأدركت ما ترجو تنكرت وتنمرت واستكبرت ثم بغيت وطغيت واستعليت ، ثم آمنت بنفسك وحدها ولم تؤمن بغيرها إلا أن تكون لك عنـده حاجة أو تكون في نفسك له مهابة.

وكذلك أنت دائماً متكلف في الصداقة ، متكلف في الإخاء ، متكلف في المجاملة ، متكلف في المصانعة . فالأخلاق عندك وسيلة لا غاية ، والوفاء عندك أداة لتحقيق المنافع وقضـاء المـآرب وإدراك الآمال . كذلك عرفتك منذ اتصلت بينك وبيني أسباب الحياة. كنت شديد الحاجة إليّ فكنت شديد الوفاء لي ، وكنت شديد الخوف مني فكنت شديد التحبب إليّ ، وكنت تظن أني قد خدعت عنك وآمنت لك وصدقت أحاديثك الكاذبة وأمانيك الخائبة واطمأننت إليك كما يطمئن الأخ الصديق إلى الأخ الصديق ، فكان ذلك يزيد مكرك بي وكيدك لي وخداعك

إياي . ولم أكن شهد الله إلا مشفقاً عليك راحماً لك . والحر يخدع أحياناً فينخدع ، كما أنه يظلم احياناً فيظّلم ، على علم منه بأنه منخدع ، وعلى ثقة منه بأنه مظّلم ، يدفعه إلى ذلك رفقه بالضعفاء وعطفه على البائسين . وأي الناس أشد ضعفاً وأبأس بؤساً وأحق بالرحمة والعطف من هؤلاء الذين تصغر نفوسهم وتكبر آمالهم !

كنت إذن شفيقاً عليك رؤوفاً بك منخدعاً لك ، لا تتقدم إلا دفعتك إلى أمام ،ولا تبلغ منزلة إلا رقيت بك إلى منزلة أعلى منها ،وأنت تقول في نفسك يا له من أحمق ! وأنا أقول في نفسي يا له من بائس ! حتى إذا دارت الأيام وخيل إليك أنك قد بلغت الغاية وأدركت الأمد واستأثرت بالأمر تصرفه كما تحب وتهوى ، أرسلت نفسك على سجيتها وأجريتها على طبيعتها ، وألقيت تلك الحجب التي كنت تتصنعها ، وألغيت تلك الكلف التي كنت تتكلفها ، وأقبلت على الخيانة والغدر والجحود ، لا تتحفظ ولا تتحرج ولا تحتاط . خيل إليك أن الحياة قد استقامت لك ، وأن الدنيا قد لاذت بك ، وأن السلطان كله قد انتهى إليك ، فاستخففت حتى بأيسر المجاملة ، واستهترت حتى بأنكر النكر . ثم لا أدري كيف ثابت إليك نفسك القديمة أو كيف ثبت إليها ، وما هذا الطائف الذي طاف بك فعلمك في لحظة من لحظات الحياة أن لبعض العهد القديم حقوقاً يجب أن تحفظ وحرمات يجب أن ترعى ، وإذا أنت تكتب إلي كتابك هذا الغريب تذكرني فيه بأيامنا تلك ، وتريد أن نعود إلى عهدنا

ذاك .

هيهات يا سيدي هيهات ! قد صرح الشرّ وظهر النكر واستبانت خفيات النفوس . وأقسم لقد خدعت نفسك أو خدعت عنها حين كتبت إليّ هذا الكتاب ، ولكنك لم تخدعني الآن ولن تخدعني غداً ، كما أنك لم تخدعني قط ، فأنا مشفق عليك الآن وغداً ، كما أشفقت عليك أمس وأول من أمس وأول من أول من أمس . ورب إشفاق خير منه الاحتقار . ورب رحمة خير منها النقمة . ورب عطف خير منه الازدراء . ولكنك لا تبلغ من نفسي أن أحتقرك أو أزدريك أو أنقم منك . فانعم بما أنت فيه من دعة كاذبة وسعة باطلة وجاه موقوت . وثق بأن الأيام التي دارت لن تقف ولكنها ستمضي في دورانها ، وستبدي لك صفحتها ، وستلقاك بالقليل أو الكثير مما تكره . وثق بعد ذلك أو مع ذلك بأنك ستجدني كما وجدتني دائماً معيناً لك دافعاً إياك محققاً لك المنافع قاضياً لك الآراب ، لا عن رحمة ولا عن عطف ولا عن اشفاق ، ولكن عن ازدراء واستخفاف . وأنا مطمئن إلى أن ذلك سيرضيك ويسليك ويسرّي عنك الهم ، ويفتح لك أبواب الأمل ، لأنك لا تكره شيئاً كما تكره التحليل والتعليل والتأويل ، ولا تفر من شيء كما تفر من التعمق والفهم ، ولأنك تأخذ المنافع كما تجيء وكما تكون ، لا تسأل من أين تأتي ، ولا تسأل كيف تأتي ، ولا يعنيك أن تعرف من أين تأتي أو كيف تأتي ، وإنما يعنيك أن تتلقاها متى عرضت لك .

فانعم بحياتك هذه الجاهلة الغافلة ، وأرحني من جهلك

وغفلتك ، فإني لا أحب أن أستقبل الامر إلا عالماً بمصادره وموارده . وبعد فأنا مستيقن أنك لم ترسل كتابك هذا الغريب حتّى انكرته ولمت يدك على أن خطته ،ولمت نفسك على أنأسلمته إلى البريد ، وجعلت تسائل حين تخلو إلى نفسك وحين تلقى أصحابك الذين يشاركونك في هذه الضعة الوضيعة : كيف يكون لقائي لهذا الكتاب ، وكيف يكون ردي عليه ، وكيف يكون تأثرك بهذا الرد ؟ فاطمئن يا سيدي ، فلن تعرف من هذا كله شيئاً ، لأني سأتقدم إلى صاحبي في أن يطوي هذا الكتاب فيما يطوي من الأوراق . وما أكثر ما يطوي من الأوراق !

لن تقرأه إذن ، ولن تعلم كيف تلقيت كتابك وكيف كان ردي عليه ، ولن تتكلف الجهد اليسير أو العسير لتلائم بين سيرتك التي تحبها وبين ما أحب أنا أن يكون عليه الأصدقاء .

١١

لا تشق على نفسك يا سيدي ولا تكلفها ما لا تريد أن تتكلف من المودة بعد أن انقطعت أسبابها ، ومن الوفاء بعد أن عصفت به الريح . لست أدري ما هذه الظاهرة الجديدة التي أخذت تظهر منذ وصلت باريس . فهذا الكتاب الذي تلقيته منك هو الكتاب الثالث من هذه الكتب التي تتكلف الود وتتصنع الحرص على الوفاء . أيمكن أن يكون الندم قد وجد إلى نفوسكم سبيلا ، أم هو الإمعان في المكر والغدر والخداع يدفعكم إلى هذه الكتب التي تقطر وفاء وسخاء وإخاء بعد أن قدمتم بين أيديكم من الأعمال ما يقطر رياء ونفاقاً وكيداً ؟!

تبارك الله ! كنت تريد أن تلقاني قبل أن ابرح الأرض ، فأحمد الله على أنك لم تلقني ، لأني عرفت غدرتك الشهباء ، وتمنيت أن يجنبك الله لقائي حتى لا تتورط في الخزي حين ترى صديقاً لم يقدم إليك إلا خيراً ، ثم لم تقدم إليه إلا مكراً وغدراً .

أحمد الله إذن على أنك لم تلقني قبل أن أبرح الأرض. واجتهد في ألا تلقاني بعد أن أعود إلى الأرض ، فاني لا أحب للناس أن يستخذوا من أنفسهم أمام أنفسهم ، فأولى ألا أحب للناس أن يستخذوا من أنفسهم أمام الناس . ولو استطعت أن استر سيئاتك لأجنبك الاستخذاء أمامها لفعلت . ولكن الأيام ستقوم عني بهذا الأمر ، فستنسيك غدرك ومكرك ، وستصور لك أنك الأخ النقي الوفي الأبي ، وستنسيني أنا أيضاً مكرك وغدرك وجحودك ، وستخيل إلي أنك ما زلت كما كنت رجلاً يظهر الخير ويخفي الشر ولا يجاهر بالخيانة ولا يصرح بالإثم تصريحاً . ولكن دع الأيام تفعل فعلها ، أتح لها أن تنسيك نفسك ، وأتح لها أن تنسيني غدرتك الشهباء . والقني إن شاء الله بعد شهور ، فلن تجد عندي إلا ما تحب . ومن يدري ! لعلي لا أنتظر بك أن تسعى إلي ، ولعلي أن أسبق إلى دعائك أو السعي إليك ، فإني قد أخذت نفسي منذ دهر طويل بقول بشار :

وصاحب كالدمّل المُمِدّ حملته في رقعة من جلدي

وأخذت نفسي بقوله أيضاً :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وإن كنت لا أشرب على القذى إلا ود هؤلاء الأصدقاء الذين يتكلفون الود وليسوا منه في شيء .

وبعد ، فقد أهملت كتاب صاحبيك فلان وفلان ، لم أرد عليهما أو لم أرسل ردي عليهما ، فما لي لا أهمل كتابك أنت كما أهملت كتابي صاحبيك ! أرحني إذن من نفسك وأرح نفسك مني ، وانتظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . لن تقرأ هذا الكتاب ، لأني سأتقدم إلى صاحبي في أن يطويه بين ما يطوي من الأوراق . وما أكثر ما يطوي من الأوراق !

وقد يسأل القارىء ما بالي خرجت بهذه الكتب من السر بعد أن استودعته إياها ؟ وما بالي أقرئ هؤلاء الكاتبين ردي على كتبهم منشوراً في كتاب مع اني أبيت أن أقرئهم هذا الرد فيما بينهم وبين أنفسهم ؟ وجوابي على هذا السؤال يسير جداً ، وهو أنني لم أتلق في باريس كتباً ولم أرد عليها . وإنما أنفقت في باريس وفي الطريق بين القاهرة وباريس ساعات كثيرة ، أفكر في أفراد من الناس منهم من أعرف ومنهم من لا أعرف ، ولكنهم جميعاً قد أذعنوا للمنفعة واستسلموا للمآرب ، وأذلوا أنفسهم للحاجات ، وأهدروا من الأخلاق وقوانين الود ما تواضع الناس على أن يكبروه ، ومسني من بعضهم شر قليل أو كثير ، فذكرتهم فيما كنت أذكر ، وتحدثت اليهم فيما كنت أتحدث . وأخص ما يمتاز به السفر بالقياس إلي أنه يردني إلى نفسي ويذكرني أشياء تصرفني عنها شؤون الحياة وخطوبها أثناء الإقامة . فقل إن شئت إني نائم حين أقيم ويقظ حين أظعن ، وأني استحضر أثناء الظعن ما يعرض لي وما يعرض من حولي أثناء الإقامة ، كما يستحضر المستيقظ ما يستطيع أن يستحضر

ممـا عرض له أو عرض من حوله في الأحـلام التي يسوقها النوم إليه أو يسوقـه إليهـا . وأنت ترى أن يقظتي ليست باسمـة دائماً ، لأن أحلامي ليست باسمة دائماً . وأنت ترى أني لست في ذلك بدعاً من الناس ، فالرجل الذي تبسم أحلامه دائماً وتبسم يقظته دائماً لم يخلق بعد . والإنسانية تبذل ما تبذل من الجهد وتلقى ما تلقى من العناء وتحتمل ما تحتمل من المشقة لعلها أن تتيح لهذا الإنسان الذي يبسم حلمه وتبسم يقظته أن يوجد في يوم من الأيـام .

١٢

صديقي العزيز ...

أعلم أنك لم تكد تعود إلى باريس أثناء الشتاء حتى قعدت في دارك وأغلقت بابك ، وآذنت أصدقاءك ومحبيك أنك لاتريد أن يشقوا عليك ولا على أنفسهم بالسعي إليك ، لأنك لن تلقى منهم أحداً . تحرص على أن تخلد إلى الراحة وتفرغ لما تريد أن تفرغ له من العمل . ولكننا نلم بباريس إلمامة قصيرة ولا نستطيع أن نسلو عن أن نهدي إليك تحية ملؤها الود والوفاء ، وسنكون أسعد الناس إن أتاحت لك صحتك وأتاح لك وقتك أن تلقانا ساعة حول مائدة الغداء في اليوم الذي تختاره قبل يوم السفر الذي سيكون في اليوم الخامس من هذا الأسبوع . وقد فرغنا من قراءة كتابك الأخير ، فزادتنا هذه القراءة إكباراً لك وإعجاباً بك إن كان من الممكن أن يكون في إكبارنا لك وإعجابنا بك مزيد .

وقد تلقى هذا الكتاب في الضحى ، ولم يتجاوز النهار نصفه حتى تحدث إليّ في التليفون كأحسن ما يكون الحديث ، وأنبأني بأنه سيتغدى معنا إذا كان الغد . ولست أري كيف تلقيت حديثه ، ولكن الذين كانوا حولي رأوا نوراً يغمر وجهي فجاءة كأنما أشرق عليه من أداة التليفون . ولست أدري كيف انتظرت هذا اللقاء الموعود ، ولكن الذين كانوا حولي شهدوا بأنهم لم يروني قط بحيث رأوني من سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن الخلق ورقة الحديث . ولست أدري كيف استقبلته حين أقبل ، ولا كيف قضيت معه تلك الساعة القصيرة ونصيب من الطعام قليلا ، ونخوض من حديث الأدب والأدباء في بحر لا ساحل له ، وإنما أعلم أن هذه الساعة القصيرة كانت وما زالت وستظل تعدل عاماً كاملاً من الأعوام التي أقضيها مقيماً في مصر أو متنقلا خارج مصر . وأعلم كذلك أني صحبته إلى داره وودعته عند باب الدار ، واستبقيت سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن الخلق وعذوبة الحديث والابتسام للحياة والأمل في الأيام يوماً وبعض يوم . ثم أخذنا نتهيأ للعودة إلى القاهرة ، فنزور ونزار ، ونحزم الأمتعة كما يقال ، ونسعى إلى القطار ونقضي فيه الليل كله ثم نقضي فيه أكثر النهار نستقبل إيطاليا مع الشمس المشرقة ونبلغ جنوا حين ينشر الأصيل حزنه الشاحب على الأحياء والأشياء ، ثم ننفق الليل في الفندق وننفق النهار في مدينة جنوا متنقلين بين أحيائها في يوم مطير بارد ، ثم نأوي إلى السفينة مع الليل وأنا في أثناء هذا كله أبحث عن نفسي فلا

أجدها ، وألتمس صديقي ذاك الذي فارق الحياة منذ قليل والذي لقيته في سفري إلى باريس ونعمت بصحبته في جنوا ، وسعدت بحديثه في السفينة والقطار فلا أجده. وأريد أن استحضر تلك الساعة الحلوة القصيرة التي قضيتها مع صديقي ذلك الكريم العظيم فلا أجد الى استحضارها سبيلاً ، وإنما هي الحياة الفارغة التي يملؤها السخف : زيارات تؤدى وزيارات تتلقى ، واضطراب في هذه الشؤون التي يضطرب فيها المسافرون ، وجلوس إلى مائدة الطعام قبل أن نركب القطار ، وإقبال على طعام الافطار الذي تحمله إلينا في الحلود فتيات مشرقات النفوس والوجوه والأصوات ، ثم محاولة للتفكير في غير نفع ، ومحاولة للحلم في غير طائل ، وإغراق في التدخين ، وتجاذب للحديث الذي لا يغني عن أصحابه شيئاً . وقد خرجت السفينة من الثغر أثناء الليل ، وأصبحنا وقد أذهلنا البحر عن أنفسنا : ريح عاصفة قاصفة ، وموج مضطرب مصطخب ، وسفينة تريد أن ترقص فلا يتاح لها الرقص ، وإنما هي حركة عنيفة مختلطة تميل بها إلى هذا الجانب ثم إلى ذاك ، وتميل بها إلى أمام ثم إلى وراء ، وآنية تساقط هنا وهناك ، ودوار يلزم أكثر السفر مضاجعهم ، وخوف يعبث ببعض النفوس ، والشمس مع هذا كله مشرقة بنور ربها تسخر في هدوء من السفينة والسفر والبحر ، كأن الريح من حولها لا تعصف ولا تقصف ، وكأن أمواج البحر لا تضطرب ولا تصطخب ، وكأن حركة السفينة لا تختلط ، وكأن ألواح السفينة لا تبعث هذا الأنين الذي يؤذي النفوس .

ونحن ننفق اكثر النهار بين غضب الريح واضطراب البحر وسخرية الشمس الهادئة التي تملؤها الكبرياء . حتى اذا دنا الأصيل سكنت الريح وسكت البحر واستيقظ النـــــاس سكارى وما هم بسكارى ، واقبلوا على طعام العشاء في فتور فاتر خير منه الاستقرار في المضاجع والمخادع . ثم يرد الليـــل الهادىء الى السفر شيئاً من قوة وفضلاً من نشاط ، فيستقبلون يومهم الثاني فرحين مرحين كأنهم لم يمتحنوا في انفسهـــــم واجسامهم امتحاناً عسيراً منذ وقت قصير . وهذه فتاة مــــن فتيات الفن الرخيص ترقص للشمس المشرقة الساخرة ،وللبحر الهادىء المطمئن ، وللسفر الذين لا يعنيهم من الرقص إلا جسم غض بض يعرض عليهم من محاسنه ما ظهر وما خفي .

وهذا رجل في الطرف الآخر من السفينة قد استحضر دباً صغيراً في قفص ضيق ضئيل ، فهو يخرج الدب من قفصه بين حين وحين ، ويعلمه ألوان الرقص وفنون اللعب ، يأخـــذه بالرفق قليلاً وبالعنف كثيراً . والناس من حوله ينعمـــون ويبتهجون : فريق من السفر يستمتعون برقص الدب ، وفريق آخرون من السفر يستمتعون برقص الفتاة الحسناء . والبحـــر الساكن المستقر والشمس الهادئة المشرقة يسخران من اولئـــك وهؤلاء . وتبلغ السفينة ثغراً من الثغور ، فلا تكاد تستقر فيه حتى يصعد اليها المجون والفجور يستهويان من يستجيب للهوى ويغويان من يستجيب للغواية . وينبئني صاحبي ببعض ذلـــك فأعرف سخرية الوجود بالناس ، واستعلاء الله عز وجل عـــن

أن يؤاخذ الناس بما يكسبون. فلو قد فعل لما أبقى على ظهر الارض ولا على متن البحر من دابة .

وأنا أفزع مع صاحبي من هذا كله الى القراءة والاملاء ولكني أحاول على ذلك أن أصل إلى نفسي فلا أجدها ، وأدعو مع ذلك صديقي ذاك فلا أسمع له جواباً ، وأحاول أن استحضر حياتي تلك في باريس فلا أجد الى استحضارها سبيلاً . وأنا ضيق بالسفينة ، ضيق بالبحر ، ضيق بالسفر ، ضيق باعتدال الجو وصحو السماء ورقة النسيم . أفزع من هذا كله الى القراءة والإملاء فلا أجد في القراءة والاملاء غناء .

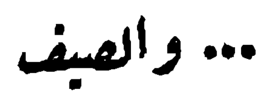
وأصبح ذات يوم وقد هدأ سعي السفينة حتى أصبح حركة لا تكاد تحس ، وإذا جندي مصري في زيه واداته قد أقبل فاحتل السفينة ، وكان احتلاله رفيقاً رشيقاً ، اختار له مكاناً ألقى نفسه فيه إلقاء ، وأسند سلاحه فيه اسناداً ، وجعل يتفكه بنظره إلى فريق من السفر ، ويتلهى بالتحدث الى فريق ، ويقول لي صاحبي مبتسماً : ها نحن أولاء نشرف على أرض الوطن العزيز .

فتقع في نفسي هذه الكلمة موقعاً غريباً ، لأنها تشعرني بأني خرجت من اليقظة فدخلت في النوم منذ فارقت صديقي ذاك الكريم العظيم .

ثم نهبط من السفينة فنرى ما تعودنا أن نرى ، ونسمع ما تعودنا أن نسمع ، ونقرأ ما تعودنا أن نقرأ ، ونضطرب ما تعودنا أن نضطرب فيه من الامر : نوم عميق ثقيل ، وحلم

متصل طويل . فمتى يتاح لي أن أستأنف السفر لعلي أن أستيقظ فألقى صديقي ذاك الذي فارق الحياة ، وألقى صديقي هـــذا الكريم العظيم ، وأجد نفسي في منعطف من منعطفات السفينة فأقول لها وأسمع منها وأجاذبها أطراف حديث ان لم يكـــن حلواً كله فان في مرارته راحة ومتاعاً .

السفينة كيريتيا ٨ مايو سنة ١٩٤٨
القاهرة ١٥ يونيو ١٩٤٨


... والصيف

١

« أمكثوا وأنا زعيم بتنبيهكم اذا استيقظ الفجر» ، قال ذلك ومس المائدة أمامه بعصاه مساً رفيقاً . فلما أقبل خادم الفندق قال له : إذا تمت الساعة الخامسة من صباح غد ، فتحدث في التليفون رقم كذا ... فسل عن صحة فاطمة ، ثم أنبئني بها حين تقدم إلي قهوة الصباح . وكان فاطمة خادماً لنا ، وكان مدير الجامعة قد استنبط هذه الحيلة ليكلف خادم الفندق تنبيهنا مع الفجر ، وكنا قد أزمعنا السفر من غد ، وجئنا نودعه وهممنا أن ننصرف ، فأراد أن يستبقينا ساعة أخرى من الليل .

وكنا قد خلعنا يوماً قائظاً محرقاً ، ودخلنا في ليل رطب ثقيل ، وكان الجو من حولنا ساكناً جامداً كأنه مخنوق مكدود ، قد احتبست أنفاسه احتباساً . وكانت نفوسنا قد وقفت وملكاتنا قد ثبتت في مكانها . لا تدور بخاطر ولا تفكير . وكانت ألسنتنا تتحرك بكلام لا يكاد يدل على شيء ذي غناء ، ولا يكاد

يعدو ما نحس من حر ، وما نجد من ضيق ، وكان الليل قد انتصف أوكاد ، وكنا نتعجل الاوبة لنستريح قبل استئناف السفر الشاق الطويل ، ولكن اليد التي كانت تخنق الجو أرسلته شيئاً فتنفس خائفاً مشفقاً ، ومست وجوهنا منه أنفاس رقيقة خفيفة ، لم تكد تبلغنا حتى بعثت الحياة في النفوس . فلما نهضنا أنكر مدير الجامعة هذا النهوض وهو يقول : الآن وقد خف الليل وتحرك النسيم ، وطاب المجلس ، وحسن السمر ا فجلسنا ما شاء الله أن نجلس ، وتحدثنا ما وسعنا الحديث . وعدنا وقد تقدم الليل نقضي بين النوم واليقظة هذه الساعات المضطربة التي يقضيها من يحرص على ألا يفوته القطار الأول .

أين أنا ؟ فيم أفكر ؟ وماذا أسمع ؟ إن من حولي لأصواتاً لا أتميزها ، أو لا أتميز منها الا قليلاً . واني لأجد هذا الشعور الغريب الذي يخيل الي أني في النوم ، ويدعوني إلى الراحة ، ويخيل إلي في الوقت نفسه أني مع الناس ، وأن من الحق علي أن اتخذ هيئة الرجل الاجتماعي . لا أكاد أتميز أصوات قوم يتحدثون من حولي ، فيهم زوجي وابناي وجماعة من الاصدقاء وما أشك في أنهم يذكرون القاهرة وأحداثها في الاسابيع الاخيرة . أما أنا فقد امتلأت نفسي بجملة واحدة ترددت علي كثيراً أمس ، وترددت علي كثيراً صباح اليوم ، وهي «إلى اللقاء» سمعتها أمس ممن زرته أوزارني مودعاً ، وسمعتها اليوم من هؤلاء الاصدقاء الكثيرين الذين أبوا الا أن يتكلفوا الغدو مع

الطير ليصافحوني قبل أن أركب القطار . « الى اللقاء » كلمة كلها أمل ورجاء قد تصدقه الايام وقد تكذبه . فمن يدري لعلي أعود فأصافح هؤلاء الأصدقاء ، وأسمع لهم وأتحدث إليهم ، وأشاركهم في جد الحياة وهزلها . ومن يدري ، لعلي لا أعود ، فلا لقاء ولا حديث ، ولا استماع ولا مشاركة في الجد والهزل . « إلى اللقاء » كلمة ينطلق بها اللسان ، فاذا هي خفيفة لا وزن لها حيناً ، لأنها كلمة مجاملة لا غير ، ولعل من الناس من يقول لسانه : إلى اللقاء ، ويقول ضميره : إذهب لا رجعت . وإذا هي ثقيلة على بعض الالسنة ، لأنها مملوءة مثقلة بالمعنى قد أودعها صاحبها كل ما في نفسه الراضية الحنون من حب وبر ، ومن خوف ومن إشفاق ، ومن أمل ورجاء يتحرك بها لسانه ، وإن قلبه ليتحرق حزناً للفراق ، وان ضميره ليود لو لم يحتج الناس الى أن يودع بعضهم بعضاً ، وان نفسه لتتمنى أن يتم هذا الرجاء ، وأن يكون هذا اللقاء قريباً. والالسنة تنطلق بهذه الكلمة مسرعة حيناً ، مبطئة حيناً آخر . والاصوات تنبعث بهذه الكلمة مشرقة واضحة ، أو مظلمة قاتمة. والقطار يتحرك والابصار تتبعه ، والأنفاس تخرج من بين الشفاه زفرات المحزون أو نفثات المصدور . كل هذه الأصوات المختلفة المتباينة التي يملؤها الحب والبغض ، ويضيء في جوانبها الامل ، ويغشيها اليأس بغشاء صفيق . كل هذه الأصوات ، وكل هذه الانفاس ، وكل هذه النظرات ، تصل الى نفسي ، وتقع في قلبي ، فتترك فيه آثاراً وندوباً . وأنا لها كلها شاكر ،

وبها كلها مغتبط ، فهي مظهر من مظاهر المجاملة ، ودليل
على أن لي في نفوس هؤلاء الناس جميعاً مكانة ما ، فان الحب
والبغض أوضح آيات التقدير .

٢

والحديث من حولي متصل ، تبلغني الاصوات ، وتقع في أذني كلمات تخلص الى نفسي بعضها ، ويقف بعضها الآخر دون صماخ الأذن . والقوم فيما يظهر يرون أني مغرق في النوم فيخلون بيني وبين الراحة ، ولا يوجهون إلي حديثاً ، وما أنا بالنائم ولا المغرق في النوم ، ولكنها الخواطر تغمر نفسي وتطيف بها من جميع جوانبها . اني لاودع قوماً لأستقبل قوماً آخرين . اني لأغلق من ورائي باباً لأفتح من أمامي باباً آخر . أغلق باب الحياة العاملة لأفتح باب الراحة والدعة ؛ واني لألقي من حولي حجباً صفاقاً وسجفاً كثافاً حتى لا يصل إلي مما حولي شيء ، لأني أريد أن أفرغ لنفسي ، وأريد أن أتحدث اليها واسمع منها ، وأحدث بينها وبيني هذا الحساب الذي طال به العهد وبعد به الزمان ، والذي أقبل عليه كارهاً له وراغباً فيه . نعم فأنا أنسى نفسي أو أتناساها طوال فصل

العمل في مصر فأريحها واستريح منها . فاذا أقبل الصيف أقبلت معه عليها ، فكان بيني وبينها حساب ما أشد يسره أحياناً ، وما أشد عسره في أكثر الأحيان . وما يكاد يتقدم الصيف أسابيع حتى أسأمها وتسأمني ، وحتى أنفر منها وتنفر مني ، وحتى أفر منها الى ألوان القراءة وضروب اللهو . وتنكمش هي فتختبئ في ناحية ضئيلة خفية من نواحي الضمير .

نعم اذا أقبل الصيف دنوت من نفسي فاستفتحت بابها فاذا فتح لي هذا الباب نظرت ، فما أسرع ما أذكر الحطيئة حين رأى وجهه في صفحة الماء فهجاه . أستعرض ما عملت ، فاذا هو منقوص ، واذا التقصير يعيبه ويفسده ، وأستعرض ما قبلت من الناس فاذا هو رديء مشوه مهين ، واذا أنا قد هدأت حين كانت تجب الثورة ، وسكنت حين كانت تجب الحركة ، وسكت حين كان يجب الكلام . واذا أنا ساخط على ما أعطيت ، ساخط على ما تلقيت ، منكر لكل ما أتيت ، واذا انا ضيق بنفسي ، واذا نفسي ضيقة بي . واذا أنا أود لو ينقضي الصيف ، وأتمنى لو أستقبل فصل العمل ، فان النشاط على ما به من قصور وتقصير خير من هذا الهدوء الهادئ الذي لا يرى الانسان فيه الا نفسه . ما أشد عجبي للذين يطيلون النظر في المرآة !

٣

كانت هذه الخواطر وكثير أمثالها تضطرب في نفسي متصلة، فأقف عند بعضها ، وأمر ببعضها الآخر سريعاً ، بينما القطار يسير بنا من القاهرة الى الاسكندرية . وكان حديث رفاقي يصرفني عنها آناً بعد آن . ولكني لم أكن ألبث أن أعود اليها أو أغرق فيها ، أو لم تكن هي تلبث أن تعود إلي فتغمر نفسي وتستغرق تفكيري حتى لم يكن بد من الانصراف الموقت عنها إلى ما يشغل المسافر عادة حين ينتقل من القطار الى السفينة ، ويهيئ نفسه لاقتحام البحر . على ان السفينة لم تكد تغادر الثغر حتى أخذت هذه الخواطر وأمثالها تعاودني . ولست أخفي اني كنت قد سئمتها وضقت بها ، فتعمدت حينئذ أن ألتمس ما يصرفني عنها ، وان كان ذلك لسهلاً يسيرا ، فقد كان معي من الكتب المختلفة المتنوعة ما يكفي لصرفي عنها الى ما هو ألذ منها وأكثر نفعاً . فقضيت أيام السفينة في أكل ونوم وحديث وقراءة في التوراة .

٤

ليس من الضروري ولا من المحتوم ، أن تكون حبراً ، أو قسيساً ، أو شيخاً من شيوخ الازهر ، لتقرأ في التوراة أو الانجيل أو القرآن . وإنما يكفي أن تكون إنساناً مثقفاً له حظ من الفهم والذوق الفني لتقرأ في هذه الكتب المقدسة ، ولتجد في هـذه القراءة لذة ومتعة وجمالاً . بل ليس من الضروري ولا مـن المحتوم أن تقرأ في هذه الكتب المقدسة ، مدفوعاً الى القراءة فيها بهذا الشعور الديني ، الذي يملأ قلب المؤمن فيحبب اليـه درس آيات الله ويرغبه في تدبرها والانعام فيها ، بل تستطيع أن تنظر في هذه الكتب نظرة خصبة منتجة ، وإن لم تكن مؤمناً ولا دياناً ، ففي هذه الكتب جمال فني أظن أنه يستطيع أن يستقل عما فيها من مظاهر الدين والايمان . أليس فيها ما يمس عواطف النفس فيبعث فيها الرحمة والحنان ، ويملؤها طمأنينة ودعة ، ويثير فيها الغضب والسخط ، ويملؤها نفوراً واشمئزازاً . ثم أليس فيها من الصور الفنية الخالصة ما يستطيع أن يثـير

إعجابك لنفسه ، لا لأي شيء آخر . وهذا القصص الساذج الحلو وهذه العظات والعبر التي تستخلص منه ، وهذه الألوان من التصوير الذي يتحدث الى العقل الانساني ، والى القلب الانساني — أحاديث تلائم ما اكتنفهما من الاطوار المختلفة ، والظروف المتباينة . كل ذلك يكفي لأن يحبب اليك القراءة في التوراة والإنجيل والقرآن ، تلتمس فيها اللذة والمتعة والخيال والفن وإرضاء الذوق ، وان لم تكن من الاحبار ولا من الرهبان ولا القسيسين ، ولا من الشيوخ ولا من طلاب الدين والايمان . وان في نفسي لخاطراً لن أتردد في تسطيره وان كنت اعلم أنه سيُحفظ قوماً ، لاني لم أتعود التردد أمام ما أقدر من سخط الساخطين في نفسي . إن من الحق على كل مثقف مهما يكن مؤمناً أو ملحداً ، ومهما تكن ملته أو نحلته — أن يقرأ في هذه الكتب ، ويكثر القراءة على نفس النحو الذي يقرأ عليه في آيات البيان القديمة والحديثة ، لا يبتغي في ذلك إلا هذه الآيات من حيث هي آيات . ليس ضرورياً ان تكون رومانياً اويونانياً أو فرنسياً أو انجليزياً أو ألمانياً ، لتجد اللذة الادبية عند هوميروس أو سفوكليس أو فرجيل أو هوجو أو شكسبير أو جوت : وإنما يكفي كما قلت آنفاً أن يكون لك حظ من ثقافة وفهم وذوق لتقرأ ، وتلذ وتستمتع ، ثم ليزداد حظك من القراءة واللذة والاستمتاع . كذلك لم تقصر التوراة على اليهود ، ولا الانجيل على النصارى ، ولا القرآن على المسلمين . وإنما هي كتب دين من ناحية ، ومظاهر للأدب والفن والبيان من ناحية أخرى ،

فهي من ناحيتها الدينية من قسمة اليهود والنصارى والمسلمين وهي من ناحيتها الفنية متاع للانسانية كلها . وما رأيك في هذه البيع والكنائس والمساجد والمعابد التي اتقن الفنيون إقامتها وتنسيقها ، وجعلوها آيات فنية في العمارة والنقش والتصوير . أتظنها مقصورة على الذين يقيمون الصلاة فيها ، ويتوسلون فيها الى آلهتهم بالوسائل المختلفة ، أم هي الى ذلك متاع مباح للذين يستطيعون أن يذوقوا الفن ويحبوه ، ويلتمسوا درسه وفهمه وتحليله ؟ أترى أنه لا يجوز لغير المسلم أن ينظر الى مسجد أو يدخله ، ولا لغير المسيحي ان يتوسم كنيسة أو يتأملها ، وأن الحكومات القائمة آثمة حين تبيح هذه المساجد والكنائس لطلاب الفن غير المسلمين والنصارى ؟ كلا ان هذه الحكومات تأثم وتجرم حين تقصر هذه المساجد والكنائس على الذين يريدون ان يقيموا فيها شعائرهم الدينية ، وتقصي عنها الذين يريدون أن يقيموا للفن شعائره أيضاً . وأنا أحب أن أمضي الى أبعد من هذا ، فأزعم أن من الممكن بل من الاشياء الواقعة أن قراءة طلاب الفن والجمال الادبي لهذه الكتب تنتج للانسانية نتائج لا ينتجها عكوف الاحبار والرهبان والشيوخ على قراءة التوراة والانجيل والقرآن . فهؤلاء يقرأون متعبدين يلتمسون الدين والإيمان ، وهم يقرأون ويفسرون ويقربون هذه الكتب الى الناس من ناحيتها الدينية وقلما يعنون بالناحية الفنية ، وقلما يدركون دقائق هذه الناحية ان هم عنوا بها أو التفتوا اليها . بينما أولئك يعنون بهذه الناحية الفنية ، وقد تمكنهم هذه العناية أن يفتحوا للناس أبواباً

لحياة فنية قوية الاثر ، بعيدة المدى . أنظر إلى هذه الآثار الفنية المختلفة التي لا تحصى ، والتي تراها منبثة في أقطار الارض المسيحية شرقاً وغرباً ، والتي انما نشأت من تأثر أصحاب الذوق والفن بما قرأوا ، أوما القي اليهم من العهدين القديم والجديد. أتظن أن لو قصرت التوراة والانجيل على الاحبار والرهبان والقسيسين لاحدثت هذه الآثار؟ وهل تستطيع أن تحصي كثيراً من الاحبار والرهبان والقسيسين كانوا الى ناحيتهم الدينية اصحاب فن وأدب وذوق ! وأين هو الحبر أو القسيس أو الراهب الذي تأثر بالعهدين القديم والجديد ، فأنتج مثلما أنتجه فيكتور هوجو حين قرأهما وتأثر بهما ؟ وسل شيوخ الازهر عن جمال القرآن الفني فلن تجد عندهم غناء ، سيجيبونك أن القرآن معجز وهم مضطرون الى هذا الجواب لأن الدين يلزمهم اياه كما يلزم كل مسلم وان لم يكن شيخاً أن يؤمن بان القرآن معجز . ولكن سلهم عن هذا الاعجاز : ما هو ؟ وما مظاهره ومصادره ؟ فلن تجد عندهم غناء . وستجد أشدهم ذكاء ، وأحدهم ذهناً ، وأنفذهم بصيرة ، وأكثرهم اطلاعاً مضطراً الى أن يعيد عليك عن ظهر قلب نظرية الاعجاز والتحدي ، كما صاغها المتكلمون منذ أكثر من عشرة قرون . فأما أن يذوق هو جمال القرآن ، وأما أن يشعر هو بما فيه من مواضع الاعجاز فشيء لا سبيل اليه . وان زعمه لك فلا تصدقه ، لأن الشعور بالجمال الادبي موقوف على درس الادب نفسه واتقان اللغة وتعمق أسرارها ودقائقها . وليس شيوخ الازهر من هذا كله على شيء .

. وسل شيوخ الازهر وكثرة القسس والرهبان عما في المساجد والكنائس والاديرة من الجمال الفني ، فلن تجد عندهم غناء. وأنا أراهن على أنك لن تجد بين شيوخ الازهر من يستطيع أن يؤرخ الازهر نفسه من الناحية الفنية ، فضلاً عن غيره من المساجد ، وفضلاً عن تذوق هذه الناحية الفنية ، وتكوين رأي فيها. حيل بين شيوخ الأزهر وبين هذا ، وأتيح هذا ــ لا أقول لغيرهم من المسلمين ــ بل لغيرهم من النصارى وأهل الديانات والنحل الاخرى . فسل مدير دار الآثار العربية وهو فرنسي مسيحي يؤرخ لك مساجد القاهرة كلها ، ويحلل لك ما فيها من ضروب الجمال الفني على اختلافها وتنوعها .

كل ما أريد من هذه الاطالة إنما هو أن أصل إلى أن الكتب الدينية ، والعمارات الدينية ، لا ينبغي أن تكون وقفاً على أصحابها وحدهم ، وإنما هي متاع للانسانية كلها كغيرها من الآثار الفنية التي كان لها حظ عظيم في تكوين نفسية الأمم والاجيال .

وإذا كان هذا حقاً ــ وهو حق بل هو واقع كما ترى ــ فقد بقيت خطوة يجب أن نخطوها . ولست أدري أيتاح لنا أن نخطوها في هذا العصر الذي نحن فيه ؟ أم يحول بيننا وبينها الجهل والجمود ؟ اذا كان من حق الناس جميعاً أن يقرأوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني ، فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا الاعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هي كتب مقدسة ، فلا يغض منها ، ولا يضعها موضع الاستهزاء

والسخرية والنقد ؟ وبعبارة أوضح : لم لا يكون من حق الناس ان يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضوع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية ؟

أما الغربيون فقد كسبوا لأنفسهم هذا الحق. وهم يدرسون الكتب الدينية والسماوية وغير السماوية، ويعلنون نتائج درسهم في حرية وصراحة ، منهم الغـــلاة في التعصب لهـــا ، والغـــلاة في التعصب عليهـــا ، والمقتصدون بـــين أولئك وهؤلاء . وأما الشرقيون فقد كانوا أيام الأمويين والعباسيين آخذين في أسباب هذه الحرية والصراحة ، يدرسون ويعلنون نتائج درسهم دون أن يتعرضوا لكثير من الخطر ، أو الأذى . ولكنهم لم يكادوا يفقدون سلطان السياسة العربية حتى تورطوا في شيء من الجهل والجمود حرمهم هذه الحرية والصراحة ، وجعل حسهم فيما يمس الدين يصبح حاداً رقيقاً شديد التأثر ، سريع الانفعال . ثم كان هذا العصر الحديث ونهضت شعـوب الشرق العربي ، وطلبت حرية الرأي ، كما طلبت الحـــريـــة السياسية والاقتصادية ، في ذلك كله ، ووصل بعضها إلى حظ لا بأس به . ولكن الحس الديني ما زال في الشرق العربي رقيقاً حاداً كما كان . ولعله قد أصبح في هذه الأيام أشد رقة وحدة ، وأسرع تأثراً وانفعالاً ، لأن الأهواء السياسية الناشئة قد أخذت تستغل الدين طلباً للتغلب والفوز . وأنا أعلم أن هذا طور انتقال وأن استغلال السياسة للدين في الشرق العربي إنما هو نتيجة الجهل وقلة التجربة ، وأن هذه الحال لا بد أن تحول ، ولا بد من أن

يشعر الساسة غداً أو بعد غد بأن استغلال العواطف الدينية لمصلحة الأهواء السياسية شر منكر يضر كثيراً ولا يغني شيئاً .
أعلم هذا ، وأعلم أنا منتهون غداً أو بعدغد إلى هذه الحرية التي كسبها الغربيون في العصر الحديث ، والتي استمتع بها العرب في الشرق حيناً إبّان القرون الوسطى . ولكني آسف أشدّ الأسف لهذا الوقت الذي نضيعه ونسرف في إضاعته ، ونحرم فيه – إن لم أقل لذة البحث والدرس – فلذة الحرية وإعلان الرأي على أقل تقدير .

خطر لي هـذا كله في مضجعي من السفينة وقد آويت إليه لأستريح بعد أن فرغت من قراءة سفر التكوين . فكانت السفينة تقترب مسرعة من مضيق صقلية وكان المسافرون يزدحمون على الجسر ليروا ما سيتكشف عنه الافق بعد دقائق من سواحل هذا المضيق .

٥

كانت السماء صافية ، والجو معتدلاً . وكان البحر هادئاً يداعبه نسيم طلق خفيف ، وكأنما كانت السفينة تنزلق على سطحه الأملس في دعة المطمئن المبتسم للحياة . وكان السَفْر أفراداً وجماعات يرسلون أعينهم في هذه الناحية أو في هذه ، ينظرون إلى إيطاليا أو صقلية . وكان هنا وهناك على الجسر سيدات قد استلقين على كراسيهن الطوال يمعن فيما في أيديهن من كتب لا شك في أنها كانت كتباً قصصية ، وربما رفعت إحداهن رأسها ، ومدت طرفها مداً طويلاً كأنما تريد ان تأخذ مما حولها صورة كاملة قوية ، حتى إذا استوفت حظها من ذلك عادت إلى قصصها ، وغرقت فيه ريثما تدفعها حاجتها إلى النظر والاستطلاع فترفع رأسها وتمد طرفها مدة طويلة أخرى . وكان في صالونات السفينة جماعات من الرجال والنساء ، منهم من يتحدث همساً ، ومنهم من يقرأ ، ومنهم من يداعب البيانو ؛ فأما « البار » فقد امتلأ بجماعات انتحى بعضها إلى ناحية ورق

اللعب ، وأخذ بعضها الآخر في حديث لا يخلو من لغط تقطعه من وقت إلى وقت جرع من أشربة مختلفة . وفي ناحية من نواحي هذا البار جلس عالمان من علماء الآثار المصرية وأخذا يتحدثان عن نقوش ثم عن كتب ، ثم ينغمسان شيئاً فشيئاً في نحو اللغة المصرية القديمة ، وفعلها واسم الفاعل فيها بنوع خاص ، وهما يتجادلان ويستظهران الأدلة والنصوص حتى نسيا كل النسيان السماء والماء وإيطاليا وصقلية والسفينة وهذه الجماعات اللاغطة من حولهما . وكان أمامهما إلى الناحية الأخرى من المائدة رجلان يعبثان بالعلم والعلماء ، والبحث والباحثين ، ويتناولان كل شيء في هزل ودعابة لا تحفظ فيهما: أحدهما أستاذ تاريخ في الجامعة المصرية والآخر أستاذ آداب .

ومضت السفينة في طريقها ، ومضى المسافرون فيما كانوا فيه حتى دقت أجراس العشاء ، فتفرق أصحاب المائدة الأولى وبقي أصحاب المائدة الثانية فيما كانوا فيه . ثم تدق الأجراس مرة أخرى فيتفرق هؤلاء ويعود أولئك فيستأنفون ما كانوا فيه ، من حياة فارغة فيهـا عبث ولعب ، وفيها نشاط وفيها شراب وفيها حديث كثير .

وكذلك يقضي أكثر الناس أيامهم في السفن ، وفيما تريد أن تقضي هذه الأيام ؟ وإنما انصرف السفر عما كانوا فيه من جد الحياة اليومية ليستريحوا ويرفهوا على أنفسهم ، فكل يلتمس من الراحة ما يلائم ذوقه ومزاجه ومقدرته على الراحة .

على ان من الحق أن نلاحظ أن ليست أيام السفينة أيام راحة

وترفيه بريئين بالقياس إلى الناس جميعاً ، فمن الرجال من يتخذ من هذه الايام فرصة لعله لا يصادفها كثيراً في حياته العادية ، فرصة لاتباع النساء ومغازلتهن ومداعبتهن باللحظ حيناً وباللفظ حيناً آخر . ومن الرجال من يتخذ هذه الأيام والليالي فرصة لعله لا يصادفها كثيراً في حياته العادية ، وينتهزها ليتجمل بأحسن ما عنده من ثياب ، وليمشي قبل الغداء وبعدالعشاء على الجسر ذاهباً جائياً يكاد جسمه يعلن عن نفسه في هذه الأشكال المختلفة التي يأخذها حين يقف وحين يتحرك ، وحين ينظر وحين يلتفت وحين يشعل السيجارة أو السيجار ، وحين يرسل الدخان من فمه. ومن النساء كذلك من تتخذ هذه الأيام والليالي فرصةللهو والعبث والدعابة ، وفرصة للتبرج وإبداء الزينة ، وفرصة — على الجملة — للاستمتاع بنوع من الحياة قلما يظفرن به في حياتهن العاملة في المدن . أما سمر الليالي وما فيه من قصف وعزف ورقص ومناجاة ومناغاة ، فلست أحدثك عنه لأنني لا أذكر أنني شهدته قط منذ تعودت أن أعبر البحر ، إنما قصاراي في هذه الأسفار إذا فرغت من العشاء أن أصعد إلى الجسر فأذهب عليه وأجئ حيناً — مهما يطل فلن يتجاوز إحراق سيجارة أو سيجارتين ، ثم أهبط إلى حيث مضجعي فآوي اليه . وأنا لا أذوق النوم في السفينة إلاّ غراراً فما أطول ما يكون في هذهالليالي الطوال بيني وبين نفسي من حديث . أهو حديث حلو؟ أهو حديث مر ؟أهو مزاج من الحلو والمر ؟ لست أدري . ولكني أعلم أنني أحب هذه الليالي ، وآنس اليها أشد الأنس ،لأنني أفرغ فيها إلى نفسي ، ولانسي

أجد فيها من الحرية والخلوة ما لا أجده في مكان آخر ولا في زمان آخر . ولعل كثيراً من الناس لا يفهمونني إن قلت إني أجد لذة غريبة قوية إذا تقدم الليل ، وهدأت حركة الناس جميعاً في السفينة ، وكنت وحدي يقظاً أو كاليقظ ، أسمع لاصطخاب الموج حين يكون البحر هائجاً ، ولعزف الريح واصطفاق الموج حين يكون البحر هادئاً ، ولما يكون في الحالين من هذا الصوت الأصم القوي الذي تبعثه السفينة في اطراد وتشابه واستمرار منذ تبرح الاسكندرية حتى تصل إلى مرسيليا. نعم أجد لذة غريبة في هذه الاصوات التي أسمعها ، وربما حاول خيالي أن يلائم بينها ، ويؤلف منها موسيقى فيها قوة ، وفيها عذوبة ، ولها قدرة غريبة على ان تخلطني بها . فاذا أنا جزء لا يكاد ينفصل من هذه الطبيعة التي تتألف في خيالي من الموج والريح والسفينة . وربما كانت الخواطر التي تشغلني من حين إلى حين قوية جذابة ، فتملأ نفسي وتملك عليّ قلبي وتصرفني عن كل شيء ، فلا أحس ولا أسمع وإنما أنا في تفكير مطلق طويل . حتى إذا مضيت في هذا التفكير إلى غايته أحسست كأني قد فقدت شيئاً وإذا أنا أجمع إليّ حسّي وعقلي وشعوري ، وأتخلص قليلاً قليلاً من هذه الخواطر التي غمرتني ، وأتلمس العودة إلى عالمي الذي أجد فيه الانس واللذة والدعة – والليل مظلم مدلهم – عالم الأصوات المختلطة تتألف من الموج والريح والسفينة. كذلك أقضي لياليّ بين الاسكندرية ومرسيليا .

ففيم كنت أتحدث إلى نفسي هذه الليلة بعد أن آويت إلى مضجعي

نحو الساعة العاشرة ، وقد أنبئت أن قد بعد ما بيننا وبين المضيق حتى لا ترى السواحل ، وإنما هي السماء والماء يمتدان ما امتد الأفق أمام الناظرين . كنت استحضر المرات المختلفة التي أخذت فيها السفينة ، وعبرت فيها البحر من مصر إلى فرنسا . واذا استحضرت هذه المرات فانما استحضر ما كان يرافقني من الخواطر فيها . وكانت الخواطر التي تعرض لي أثناء هذه الليلة ولا تكاد تفارقني خواطر سفري الأول من الإسكندرية منذ أربع عشرة سنة ، ثم سفري الثاني من بور سعيد منذ ثلاث سنوات ثم سفر آخر من بور سعيد منذ اربع سنين .

كنت أراني حين تركت مصر لأول مرة شيخاً معمّماً قد صعد إلى السفينة يتعثر في أذيال جبته وقفطانه اللذين كانا يزيدانه حيرة إلى حيرته الطبيعية التي قضت بها عليه عاهته التي حالت بينه وبين الضوء . فلم أكد أصل إلى غرفتي حتى طارت العمة عن رأسي . ولقد أريد أن أتذكر إلى أين ، فلا أجد إلى ذلك سبيلاً . كل ما أعرفه أني خلعتها حين دخلت الغرفة ، ثم لست أدري إلى أيّ حال صارت . ولو قدعثرت عليها لحفظتها تذكاراً باقياً ، ولوجدت شيئاً من الحنان والحزن والأمل حين آخذ بين يديّ ذلك الطربوش الكالح ، وتلك الخرقة التي ما أظن أنها كانت يومئذ ناصعة البياض. وخلعت الجبة والقفطان ، وأنا أعلم إلى أين صارا ، منحهما أخي هدية لسيدة كان يألفها في فرنسا ، ولست أدري ماذا اتخذت منهما . خلعت العمة ، وخلعت الجبة ، وخلعت القفطان ، ودخلت في هذه الثياب الأوربية . فكم

ضقت بها ، وكم كرهتها ، وكم ندمت على جبني وقفطاني طوال الاسبوع الذي قضيته على ظهر « اصبهان » رحمها الله . فقد هوت « أصبهان » إلى قاع البحر ، وعبث الموج بأجزائها ، كما عبث بأجزاء عمي في أكبر الظن .

وكان البحر في هذه السفرة يروعني ويخيفني ، ويملأ قلبي هولاً ورعباً . كنا في نوفمبر ، وكان البحر هائجاً شديد الهياج ، وكانت سفينتنا صغيرة ضئيلة عتيقة تحب الترجح والرقص . فكانت تعلو وتهوي ، وتميل ذات اليمين وذات الشمال ، وكانت الريح هوجاء في أكثر الوقت ولا سيما إذا أظلم الليل . وكنت أسمع عصف الريح وقصفها ، واصطخاب البحر وهديره ، وكنت أحس اضطراب السفينة عنيفاً قوياً ، ولم أكن أرى على ذلك كله شيئاً . فتصور هذا الذي لم يتعرض قط لخطر ، ولم يعرف قط الحياة المضطربة العنيفة ، ولا حظ له من العلم بالبحر ولا تجربة له فيه ، ولم يقدر الله له حظاً من النور يرى به أن هذا الاضطراب وهذه الضوضاء وهذا الموج المتراكب مهما يكن عظيماً فهو لا يعرض السفينة للهلكة ولا للعطب . واشتد الذعر وكدت أيأس من كل شيء ذات ليلة حين وقفت السفينة فجأة ، وقيل إن بعض أدواتها قد عطب . حينئذ ذكرت مصر في حسرة ، وذكرت فرنسا في لوعة ، واستلقيت على سريري أنتظر الموت بينما نهض صديقي ... فلبس وازين لأنه كما كان يقول لا يريد أن يموت في قميص النوم . ثم انجلت تلك الغمة ، واستأنفت السفينة سيرها هادئة في جو هادىء . وما هي إلا ساعات حتى

أشرفنا على الساحل الفرنسي . ومضت بعد ذلك سنة كان فيهـا ما شاء الله من حلو الأمر ومره ، وإذا أنا في آخر ديسمبر سنة ١٩١٥ في القاهرة أتهيأ لاستئناف الرحلة إلى فرنسا بعد أن كنت قد يئست من عبور البحر مرة أخرى ، وأقبلت ذات مساء إلى الجامعة أودع موظفيها قبل السفر إلى بور سعيد . فيا هول مـا سمعت حينئذ . أنبأني السكرتير أنني قد اضطر إلى البقاء ، لأن الحكومة الايطالية ترفض أن أمر بأرضها إلى فرنسا . ولم هذا ؟ لأنك ضرير وايطاليا لا تريدأن يمر بأرضها أو يستقر فيها إلامن كان قادراً على ان يعيش دون أن يكلف الحكومة الايطالية مشقة أو عناء . وإذن فلن تسافر غداً إلا أن يأتي الله بما ليس منتظراً. لا أذكر أن شيئاً وقع من نفسي موقعاً مؤلماً كهذاالنبأ.وكانت لهذا الألم مصادر مختلفة : أولها تأجيل هذا السفر الذي امتدت إليه نفسي بكل قوتها ثلاثة أشهر كاملة . والثاني علةهذا التأجيل وهي أني ضرير لست كغيري من الناس ، ماذا أصنع في مصر وليس لي عمل فيها ، ولا مورد للحياة ، ثم أشياء أخرى كانت تمتلئ بهـا النفس ليس إلى تفصيلها من سبيل .

وسأشكر ما حييت — لرئيس الجامعة يومئذ ، ولمدير دار الكتب يومئذ ووزير المعارف حين أملي هـذه السطور وللمرحوم علوي باشا — ما كان لهم من جهد حميد وبلاء حسن في تذليل هذه الصعوبة الطارئة والعقبة المفاجئة ، فقد اتصل رئيس الجامعة بوزير إيطاليا المفوض ، وكان من أثر هـذا السعي أن أذن لي بمرافقة أصحابي إلى فرنسا عن طريق

نابولي .

وانتصف نهار الغد وإذا نحن على ظهر سفينة هولاندية صغيرة ظريفة انيقة قادمة من الشرق الاقصى عليها قوم فرحون، فيهم شباب نشيط مرح . وفيهم بنوع خاص ناهد لم تبلغ الخامسة عشرة بعد ، رأت صاحباً لي في عمته وجبته وقفطانه ، وكان وسيماً أنيقاً متظرفاً . فأنست اليه ، وفتنت به أو بزيه . وكان أنسها وفتنتها موضع حديثنا وعبثنا حتى اقلعت السفينة ،وتركنا صاحبنا الشيخ في زورقه يتبادل مع الفتاة التلويح بالمناديل .وأقبل الليل وآوينا إلى مضاجعنا آمنين مطمئنين رغم ما كان يُذكر من حديث الغواصات . ألم نكن في سفينة محايدة لا سبيل عليها للمتحاربين ؟ ولكن باب الغرفة يطرق ثم يؤذن للطارق فيدخل ، وإذا هو يتحدث الينا في فرنسية مضطربة أنه إذا دق الجرس فأسرعوا إلى جسر كذا ، وقفوا أمام الزورق رقم كذا ... قال صاحبي : وفيم يدق الجرس ؟ قال الطارق : وهل نسيت الغواصات ؟ وانطلق وأقفل الباب من ورائه . وكان الدوار قد أخذ يلعب بـرأس صاحبي ، فانضم إليه الخوف والوجل.وما أزال اراه يقيء ، ويعالج الدوار ، ويدعو أمه ، ويذكر إخوته الصغار في لهجة كانت تؤلمنا وتضحكنا معاً، وكان هو أسرعنا إلى الضحك وأشدنا ألماً .

كانت حلوة لذيذة تلك الأيام السعيدة بين بور سعيد ونابولي آخر سنة ١٩١٥ . ألم أكن قد وفقت إلى العودة إلى فرنسا حيث باريس ، وحيث السوربون وحيث استئناف الدراسة وتحقيق

الأماني وحيث تلك التي لم تكن قد جاوزت العشرين من عمرها والتي فارقتني في مونبلييه أوّل الصيف على أن نلتقي في باريس إذا أقبل الشتاء ، والتي عرفت عودتي إلى مصر وإشفاقي من البقاء فيها ، فكتبت إليّ وضمنت كتابها وردة من ورود فرنسا ما أزال أحفظها إلى الآن . أكان ما أضمر لها في قلبي حباً ، أم كان مودة خالصة ، أم كان شيئاً بين ذلك لم أكن أتبينه حينئذ وإنما تبينته بعد ذلك بشهرين كاملين . كانت حلوة لذيذة تلك الأيام بين بور سعيد ونابولي وكان أحلى منها وألذ ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إلى نابولي بل تلك الساعة التي أسرعت فيها إلى مكتب البريد فوجدت فيه كتابين قرأهما عليّ صاحبي مرة ومرة . فلما طلبت اليه القراءة الثالثة قال في شيء من اللطف والسخرية : لعلك تنسى أن القطار يسافر في الساعة الثالثة ، وأن من الحمق أن تسافر ولما نطف قليلاً في هذه المدينة التي لم نرها قبل اليوم ، ولعلنا لا نراها بعد اليوم ، وكان أحلى من ذلك وألذ ، ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى باريس ، بل تلك الساعة التي طرق فيها باب غرفتي ، ثم فتح ثم أقبل عليّ شخص فصافحني في قوة ومودة وصراحة ، وجلس إليّ ساعة يسألني وأسأله ويجيبني وأجيبه . ثم افترقنا على أن نلتقي من غد . والتقينا من غد فما افترقنا منذئذ يوماً ولا ساعة ولا بعض ساعة إلا أحسست — شهد الله — في نفسي ألم الفراق وشوقاً إلى اللقاء .

وانقضت في باريس وفي القاهرة أعوام كان فيها ما شاء الله من حلو الأمر ومره حتى كان يوم ٥ يوليه سنه ١٩٢٤ . وإذا

أنا في بور سعيد كما كنت آخر سنة ١٩١٥ . ولكني لم أكسن وحدي ، وإنما كان معي في هذه المرة زوجي وابناي . وكان معي صاحبي الذي رافقني إلى بور سعيد، وداعب الفتاةوداعبته على ظهر السفينة الهولاندية ولكنه لم يكن في هذه المرة شيخاً ولا متأنقاً ولا متظرفاً ، وإنما كان رجل جد ودعابة لم تفارقه . كنا في بور سعيد ، وكنا نأخذ طريقنا نحو السفينة، ولكنّا كنا نسأل أنفسنا أنبلغها ؟ أيخلى بيننا وبينها ؟ حتى إذا عرض لنا بعض عمال الثغر يطلب الباسبور لم تشكّ زوجي، ولم أشك أنا في أنه يريد بأمر من الحكومة أن يحول بيننا وبين السفينة ، ولكنه لم يفعل ، فأخذنا الزورق وصعدنا إلى السفينة وجلس. ولم نكد نبلغها حتى آوينا إلى غرفتنا فلم نفارقها إلا بعد أن أقلعت السفينة . وكان صاحبي قد صعدمعنا، ولكننافقدناه ساعة حتّى اذادقت الإجراس مؤذنة باقلاع السفينة أقبل فودع مسرعاً وانصرف ولكنه همس في أذني قائلاً : يوم كيوم السفينة الهولاندية . ثم عرفت منه بعد ذلك أن قد كانت له قصة فيها غزل ودعابة ، ولكنها دعابة لم تكن من البراعة بحيث كانت تلك .

وأقلعت السفينة ومضت في سبيلها ، وخرجت من الغرفة وصعدت الى الجسر وانا أتمثل في صدق واخلاص وابتهاج قول ذلك الشاعر القديم :

عَدَسْ ما لعبّادعليك إمارةٌ نجوتِ وهذا تحملين طليقُ

مم كنت اخاف؟ وممّ نجوت؟ كنا يومئذ اشد ما نكون في مصر فرقة وانقساماً . وكانت الخصومة السياسية عنيفة منكرة ،

وكانت الحكومة القائمة قد أمرت بالتحقيق مع « السياسة » وكتابها . وكانت النيابة قد دعتني وسألتني فأبيت ان اجيب واضطرت إلى وقف التحقيق. وكانت وزارة المعارف قد تسلمت الجامعة . وكانت قد ماطلت في الإذن بالسفر ، ثم أذنت كارهة . وكنت أنتظر من وقت لآخر أن تأمر النيابة بالقبض ثم السجن . وكنت أحرص ما أكون تلك السنة على السفر إلى فرنسا لاستريح وأريح زوجي وابني . فليس غريباً ان أتنسم الهواء الطلق بكل صدري منشداً :

« نجوتِ وهذا تحملين طليق .... »

. . . . والآن تمضي السفينة بنا هادئة مطمئنة مسرعة بين مضيق صقلية ومضيق بونيفاسيو والليل مظلم مدلهم . وكل شيء هادئ وادع إلا هذه النفس ، فانها ثائرة مضطربة مغيظة محنقة تستعرض هذه الحوادث التي مرت ، وتستعرض آخرها الذي لم يفرغ بعد، وهي تنشد في غيظ وحنق لا في ابتهاج وسرور :

« نجوت وهذا تحملين طليق ... »

ذلك أني لم أسافر هذه المرة كما تعودت أن أسافر في لين ورضا واستبشار بالسفر ، وإنما سافرت على كره من الناس ، وعلى كره من نفسي . سافرت ولو استطاع قوم لحالوا بيني وبين هذا السفر ، ولأقمت في مصر أراهم ويرونني ، وأغيظهم ويكيدون لي .

نعم كل شيء من حولي هادئ حتى موج البحر ، ورياح الجو ، وحتى صوت السفينة المطرد ، إلا هذه النفس فانها ثائرة

مضطربة ليست بالهادئة ولا المطمئنة ... تذكر سنة ١٩٢٤ حين سافرت على كره من قوم لو استطاعوا لأمسكوني في مصر . وأنا الآن أسافر رغم هذا الشيخ الذي نهض في مجلس الشيوخ يستصرخ المسلمين ، ويستغيث برئيس الوزراء عليّ ، لأنني – فيما زعم مسخروه – عرضت الدين للخطر . نعم ، ورغم هؤلاء الشيوخ الأزهريين الذين أبرقوا إلى رئيس الوزراء من أقصى الصعيد يستغيثون به لأن الصحف نقلت اليهم أنني عرضت الدين للخطر. نعم ورغم هؤلاء الشيوخ الازهريين الذين توسلوا الى رئيس الوزراء ألا يدعني أسافر حتى يؤلف لجنة تستوثق من أنني لن أعرض الدين للخطر أمام مؤتمر المستشرقين في أكسفورد . نعم ، ورغم قوم كثيرين كانوا يسعون هنا وهناك سراً وجهراً ، يكيدون ويغرون ويضللون .

لقد سئمت هذا كله ، وتقدمت إلى مدير الجامعة معتذراً فأبى وألح ، وسافرت مغيظاً محنقاً على هؤلاء الناس الذين يتخذون الدين والسياسة وسيلة للكيد ، وبث الفساد في الأرض . وإنهم ليعلمون حق العلم أن الدين أثبت وأمكن من أن يعرضه للخطر رجل كائناً من كان . وإنهم ليعلمون حق العلم أن هذا الرجل الذي يكيدون له ، ويسعون به ، أحرص منهم على سلامة الدين ، والتمكين له في الأرض ، وأقدر منهم على ذلك ، وأحسن منهم بلاءً في حمايته ، والذود عنه ، ولكنهم بين مأجور وموتور .

نعم كل شيء من حولي هادىء مطمئن حتى موج البحر ،

ورياح الجو ، وحتى صوت السفينة المطرد ، وحتى إني لأسمع ابنتي النائمة في سريرها تلقاء سريري يتردد نفسها البريء في صدرها تردداً هادئاً منتظماً . فما لهذه النفس الثائرة لا تهدأ ، وما لها لا تتصل بهذه الطبيعة الهادئة من حولها ؟ أكل شيء في مصر كان يدفع إلى الثورة النفسية ، ويهيج عواطف الغضب والغيظ ؟ ألم يكن في مصر ما يبعث في النفس شيئاً من الرضا ، ويحمل إلى القلب شيئاً من الطمأنينة ؟ بلى . وإني لجاحد منكر للجميل إن نسيت هذا الرجل الذي لم أكن أعرفه ولم يكن يعرفني إلا بما كان بيننا من خصومة سياسية عنيفة ، والذي وقف أمام البرلمان كله وهو يتألف من كثرته الحزبية وقفة الحزم والمروءة والاباء والدفاع عن حرية الرأي . نعم إني لجاحد منكر للجميل إن نسيت موقف علي باشا الشمسي أمام النواب وأمام الشيوخ ، وأمام أولئك وهؤلاء من السعاة وأصحاب الكيد ، لا يضطرب ولا يتردد ولا يفرط . وإني لجاحد منكر للجميل إن نسيت أني ذهبت أودعه ، وأشكر له بعض مواقفه أمام مجلس الشيوخ ، فقال لي : لست أقبل منك شكراً ، لأنني لم أقف هذا الموقف دفاعاً عنك ، وإنما وقفته دفاعاً عن رأي ، وأنا أعلم أنهم يأتمرون بك ، ويكيدون لك ، ولكني لا أسمح بأن يكون للكيد والسعاية أثر في الحياة العامة وأنا وزير . فسافر مطمئناً ، وثق بأني لن أبرح الأرض حتى أقضي على هذا الكيد — هو الآن بعيد عن الحكم ، ولم تكن بيني وبينه — وما أظن أن ستكون بيني وبينه — صلة غير هذه الصلة التي تحملني على أن أذكر مروءته ووفاءه

للحق والحرية ، والتي تحملني على أن أسطر هنا ما أشعر به من أسف شديد ، لأن وزارة المعارف حرمت رجلاً كهـذا الرجل . أأذكر عدلي وموقفه يوم ثارت الثائرة ؟ كلا . فما كنت أنتظر من عدلي غير هذا . أأذكر ثروت وموقفه يوم استقلت فرفض الاستقالة ، ويوم سعى اليه الساعون ، وكاد عنده الكائدون فأبى الا ان يكون وفياً شريفاً ؟ كلا ، فـلم أكن أنتظر من ثروت غير هذا . فأما علي الشمسي باشا فأني أذكره ، ولن أفرغ من الثناء عليه ، لأني أظن بل أثق أن قليلاً من الناس يستطيعون أن يقفوا مثل مواقفه بازاء خصم سياسي تظاهرت عليه قوى – أقل ما توصف بهأنها شديدة الاثرفي حياتنا العامة كلها ، وفي حياة الوزراء بنوع خاص .

نعم وهؤلاء الذين كنت أعمل معهم في الجامعة ، والذين كانوا إذا أصبحوا قرءوا وتلقوا احتجاجاً أو اعتراضاً او نذيراً ، فلا يزيدهم ذلك الا حرصاً علي ، ورفقاً بي ،وتشجيعاً لي . هؤلاء الاصدقاء الذين كانوا كلما اشتد الامر وجد الجد ، افتنوا في التماس الوسائل لتسليتي والتسرية عني .

أليس هذا كله يكفي لتهدئة هذه الثورة واخماد هذا الغيظ ؟ بلى ، بل هو يكفي لأكثر من ذلك . يكفي لاحياء الامل ، وتنشيط الرجاء ، وتقوية الثقة بأن ما في مصر من أعراض الشر سحابة صيف لا تلبث أن تبددها هذه الشمس المشرقة الحارة التي تمتلىء بها نفوس الاخيار من أذكياء مصر وأولي الرأي والضمائر والقلوب والاخلاص فيها ، وإنهم على قلتهم لكثير .

نعم يجب أن تهدأ هذه النفس الثائرة ، وأن يطمئن هذا القلب المضطرب ، وأن تخمد جذوة هذا الغيظ ، وأن يقوم الامـــل مقام اليأس ، والنشاط مقام الخمول ، وأن أستأنف القراءة اذا انجلى الليل وبسطت الشمس رداءها الفضي على هذا البحر الهادئ الصافي ، وانقضت هذه الحركة التي نأتيها مصبحين في السفينة بين افطار وتدخين وتهيؤ وصعود الى الجسر ووضـــع للكراسي في موضعها وتبادل التحيات والسجائر . نعم يجب ان استأنف قراءة التوراة ، فقد فرغت من سفر التكويـــــن ، ولست أشك في اني سأجد في قراءة سفر الخروج لذة فنيـــة وعقلية ودينية معاً .

٦

وأصبحت ممتلئ النفس بحديث الازهر ، لا يفارقني ولا أنصرف عنه، كأنما فرضت علي التفكير في الازهر والازهريين قوة قاهرة لا استطيع لها دفعاً ، ولا أجد عن الاذعان لهـا محيصاً ، كنت أفكر في الازهر مشفقاً آملاً ، على شيء من السخط بين هذا الامل وذلك الاشفاق. ولم كنت أفكر في الازهر هذا التفكير الذي حملني على أن أرفض في رفق ما عرض علي صاحبي من قراءة التوراة ، حين تمت الساعة العاشرة ، وفرغنا من حركة الصباح على السفينة ، ولم يكن لنا الا أن نقـــرأ أو نتحدث حتى تدق أجراس الغداء ؟. هذه زوجي قد اعتزلتنا وعن يمينها كتاب وعن شمالها علبة فيها من أدوات الخياطـــة والتطريز ما شاء الله ، وهي تتنسم هواء البحر ، وتلقي نظرة على اليمين وأخرى على الشمال ، وكأنها تسأل نفسها ، أتأخذ الكتاب أم تفتح العلبة ؟ وهذان ابناي في نشاط ومرح وصياح واضطراب ، يجريان ويقفان ، ولا يدريان بأي أطراف اللعب

يأخذان . وهؤلاء المسافرون يلقى بعضهم بعضاً في تحية وبشر وحديث عن البحر والجو ، وقرب الوصول الى مرسيليا . وهذا صاحبي قد هيأ لي كرسياً وأجلسني في دعة ورفق ، ثم هيأ كرسيه في بطء ورزانة لا تلائم سنه ولا شخصه ، ثم جلس متثاقلاً متباطئاً وهيأ صحفه وهو يسألني : أأبدأ في قراءة التوراة ؟ فأجيبه : لا . فيسألني : فأي كتاب آخر تريد أن أقرأ ؟ فأجيبه : لا شيء . وما أشك في أنه ابتهج بهذا الجواب واغتبط ، فقد ظل لحظات ثم نهض وعاد وغرق في كتاب من هذه الكتب التي تعود أن يغرق فيها متى أعفيته من العمل ، لأنه يتهيأ للامتحان . وتركت أنا زوجي مترددة بين الكتاب والثوب ، وابنيّ مضطربين على جسر السفينة ، وصاحبي غرقاً في المدني أوالدولي ، ومضيت أنا أفكر في الازهر ، أفكر فيه حين دخلته لاول مرة أشهد صلاة الجمعة ، وكنت أعتقد أن قدميّ تطآن أشد بقاع مصر تقديساً وطهراً ، وأفكر فيه حين كنت أختلف اليه أول النهار وآخره وإبانه — مقتنعاً بأني حين أختلف اليه أؤدي واجباً لا يعدله واجب ، وأقدم الى نفسي أقوم اللذات وأقواها ، وأفكر فيه حين أخذ هذا الشعور يفتر ويضعف ، وحين كنت أختلف الى الأزهر في شيء من الكره والملل ، مقتنعاً بأني إنما أفعل هذا لأخلص من واجب ثقيل ، وأفكر فيه حين كنت أؤثر عليه دار الكتب ، وحين كنت أزوره لماماً لأسمع فيه درس الأدب ، ولأعبث فيه مع طائفة من الرفاق بجماعة من الشيوخ كانوا يكرهوننا مخلصين ، وكنا نكرههم مخلصين أيضاً .

وأفكر فيه حين أقصيت عنه معيداً راضياً وساخطاً في الوقت نفسه . ثم أفكر فيما بيني وبينه الآن من صلات لا أكاد أحددها إلا في مشقة وعسر . فهو يكرهني ، وأنا أشفق عليه وأرثي له . ولعلي لا أقول الحق ان لم أضف أني أضيق به من حين الى حين.

نعم كنت أفكر في الازهر مستعرضاً هذا كله جملة وتفصيلا واقفاً من وقت الى آخر عند قصة تضحكني ، وأخرى تغضبني ، وثالثة تبعث على شفتي ابتسامة لا تخلو من غيظ ورثاء ، ولكن لم كنت أفكر في الازهر ؟ أهي تلك الخواطر التي كانت تضطرب في نفسي الليلة البارحة فتبعث فيها الغضب والثورة ؟ نعم وهذا الأمل الذي أحسسته قبيل سفري حين نشرت الصحف تنصيب الشيخ الجديد ، وتنصيب المفتي الجديد . وإن كنت لشديد الاسف لأني لم أستطع أن أصافح هذين الشيخين قبل أن أبرح القاهرة ، وان كنت لشديد الحيرة حين كنت أحاول أن أحلل هذا الشعور الذي وجدته حين قرئ علي في الصحف رفع هذين الشيخين إلى منصب الرياسة الدينية العليا ، والى منصب الافتاء .

ذلك أني أعرفهما وتصل بيني وبينهما صلات قوية ، وتصل بيني وبين أحدهما بنوع خاص صلات من تلك التي يحرص الناس على تقديسها ، ويجدون شيئاً من اللذة في تذكرها واستعراضها. أحدهما كان أستاذاً لي ، والآخر كان شيئاً بين الاستاذ والرفيق. سمعت على أحدهما دروساً في علم الكلام وكنت به معجباً ، وعنه شديد الرضا . وأسفت أشد الاسف حين ولي القضاء في

السودان فترك الازهر والدرس فيه . وكان الآخر زميلاً لأخي في الدرس ، وجاراً له في المسكن ، وشريكاً له في الحياة . وكنت بحكم هذا كله أعاشره وأخالطه أشد المخالطة في جماعة من زملائه وشركائه في الحياة فرّقتهم الايام الآن ، وبعدت بيني وبينهم الآماد ، واختلفت بيني وبينهم الصلات ، إلا هذا الشيخ فقد بقيت الصلة بيني وبينه على تقلب الدهر وتبدل الظروف واختلاف الحوادث - كما كانت متينة يسيرة ، لا كلفة فيها ولا مشقة . هو الآن مفتي الديار المصرية ، وكان قبل ذلك رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية ، وكان قبل ذلك صاحب الصلاة في القصر الملكي ، وكان قبل ذلك يشغل منصب القضاء في المحاكم المختلفة ، ولكني حين أتصوره الآن أجرده من كل هذه المناصب ، ومما تخلع عليه من جلال وهيبة ، ولا أتصور منه الا هذا الطالب الازهري الذي كنت أعرفه ساذجاً يتوقد ذكاء ، ويتقطع نشاطاً ، حاداً في المناقشة ، غليظ الصوت كأنه الرعد حين يقرر مسألة من المسائل ، شديد الحياء شديد التواضع . قوي الإيمان ، لا حد لإخلاصه حين يواجه أمراً من الأمور ، أو يعامل صديقاً من الاصدقاء ، شديد التأثر بما يقرأ ، يؤمن به حتى يقرأ ما هو أشد منه تأثيراً في نفسه ، فيتبدل رأياً برأي ، ونحواً من التفكير بنحو آخر . قوياً بنوع خاص في علوم المنطق والفلسفة والتوحيد والفقه والاصول ، مزدريـاً الى حد غير بعيد علوم النحو والصرف والبيان وما يتصل بها من علوم الرواية . عاش في البيئات المختلفة طالباً وأستاذاً

وفاضياً ، ولكنه ظل كما كان رجلاً من أهل الريف ، فيه كل ما في الريفيين من وداعة وسذاجة ، وفيه خيرة ما في المتحضرين من ذكاء ونشاط .

كان هذا الشيخ كما كان الشيخ الآخر ، وكما كان هذا الجيل الذي درس في الازهر آخر القرن الماضي و أول هـذا القرن — من أشد الناس تأثراً بالشيخ محمد عبده ، وتعصباً له ، وإيماناً به ، وافتتاناً بما كان يدعو اليه . إن هذا الجيل الذي أشير اليه لخليق بالعناية ، وان تاريخنا العصري ليفقد حلقة من حلقاته القيمة اذا لم ينهض بعض المؤرخين لدرس هذا الجيـل من الازهريين ، وتقييد ما كان يملؤه من نشاط ، وما كان يسيطر عليه من ايمان بالمثل الأعلى ، وحرص على التجديد والاصلاح ونفور من القديم ، وسخط وازدراء لأنصاره من الشيوخ .

كان هذا الجيل يؤمن الى حد التعصب بحرية الرأي ، وبغض الجمود ، ووجوب الاجتهاد ، وتحطيم هذه الاغلال التي كانت تأخذ بأعناق الشيوخ وأيديهم وأرجلهم . وكانوا يختلفون الى دروس الشيخ محمد عبده في التفسير والبلاغة والمنطق ، مؤمنين أشد الايمان بأنهم ليسوا كغيرهم من طلاب الازهر يدرسون ليعلموا ما كان يعلمه الشيخ ، إنما كانوا رسل إصلاح وتجديد ونهضة . وكان من ألذ الاشياء وأحبها الى النفس أن تستمـع اليهم وهم يتحادثون بين درس ودرس ، يذكرون ما قـال الشيخ وما عمل ، يقلدونه في الصوت ونبراته ، كما كان من ألذ الاشياء وأحبها الى النفس أن تراهم يسرعون الى الصحف

يقرأون فيها متلهفين ما كان يكتبه خصوم الشيخ ، وما كان يوحي به القصر حينئذ من كيد للشيخ ، وتأليب عليه . وكان من ألذ الاشياء وأحبها الى النفس آن تسمعهم وهم يبسطون آمالهم العراض اذا انتهوا من الدرس، وظفروا بالشهادة وارتفعوا الى مناصب التدريس والقضاء . اذن فسيدرسون العلم على وجهه، وسينفذون في المحاكم الشرعية آراء الشيخ، وسيمحقون الرشوة محقاً ، وسيلغون تعدد الزوجات ، وسيقيدون الطلاق، وسيؤيدون آراء قاسم أمين التي رضيها الشيخ . وسيحيون فلسفة ابن سينا وابن رشد ، وبلاغة الجرجاني . وسيقضون على هذه الكتب السقيمة التي قضت على عقل الازهر والأزهريين. وكان من ألذ الاشياء وأحبها الى النفس أن تستمع اليهم وهم يقلدون شيوخ الازهر عابثين بهم ساخرين منهم ، هذا يتشدق كما يتشدق الشيخ فلان ، فيفخم القاف ، ويملأ فمه بالراء ، في عبارات كلها جهل وغفلة مضحكان ، وهذا يتغنى ويترنم في القراءة والتحقيق ، وهذا يكثر من قال وقيل وبقى ، وهذا يستعمل ألفاظ الريفيين ، وهذا يسفه ويشتم . وعلى هذا النحو كان يمر جلة شيوخ الازهريين هؤلاء الطلبة العصاة، فلا يخلصون منهم الا وقد أصابهم من ضروب التشويه والتمثيل شيء كثير.

كانوا كذلك وكانوا لا يفترون عن درس هذا العلم الأزهري القديم ليصلوا الى الشهادة ، وكانوا يرون هذا العلم شراً لا بد منه . وكانوا يرددون هذه الجملة : الضرورات تبيح المحظورات . ثم أبعد شيخهم من الازهر ، فلم يزدهم

ذلك الا حقداً على الأزهر والأزهريين ، وافتتاناً بالشيـــخ وتهالكاً عليه ،يزورونه في عين شمس ، ويزورونه في بيت الافتاء . ثم مرض الشيخ ثم مات.ولاتسل عن القلوب المفطورة والنفوس المحزونة ، والدموع المنهمرة ، والزفرات المتصاعدة والعهود يقطعونها على أنفسهم ليُحْيُنّ سنة الشيخ ، وليحققن ما كان يريد من اصلاح . ثم أتيح لهم أن يظفروا بشهـــادة العالمية .ثم اندفعوا في الحياة العاملة ، فمنهم الأستاذ ، ومنهـم القاضي . ولست أريد أن أسألهم عما أحيوا من سنة الشيـخ ، ولا عما حققوا من ضروب الاصلاح ، ولكني ألاحظ أن الحياة العاملة قد غمرتهم وألهتهم عن الشيخ وسنته وإصلاحه ، فما يزالون يذكرونه بالخير — إن ذكروه — فأما اذا جدّ الجدّ فأنت تعلم كما أعلم أن بلاءهم في الاصلاح والتجديد قليل .

ولقد أذكر فيما أذكر — وأراني أضحك وحدي حين أذكر ذلك — أن جماعة من هؤلاء التلاميذ المحبين للشيخ اتفقـوا ذات يوم على أن يسيروا سيرة الشيخ ، فيدرسوا لغة أجنبيـة كما كان الشيخ يتكلم الفرنسية ويفهمها . جلسوا يتحاورون فأجمعوا على أن في درس اللغة الاجنبية فائدة لا تعدلها فائدة ، لأن ذلك يمكن من معرفة ما يكتبه خصوم الاسلام والردّ عليه: أليس الشيخ قد رد على هانوتو ورينان لأنه كان يعرف لغتهما؟ نعم ، لا بد من درس اللغات الأجنبية ، ومن السفر الى أوروبا ، ومن تعرّف الداء في موضعه لحسمه والقضاء عليه . ولكن أي اللغات يجب أن تدرس ؟ قال قائل : الفرنسية التي درسهـــا

الشيخ . وقال قائل آخر : الانجليزية لأنها لغة الحكام ولغة المدارس. ولا بد من أن نعرف هذه اللغة لنكون كهؤلاء الشبان الذين يخرجون من المدارس فيتيهون علينا بهذه الرطانة التي لا نحسنها. وما أيسر أن نلوي ألسنتنا وأفواهنا ، ونخرج هذه الاصوات التي يسمونها لغة إنجليزية .

واتفقوا فيما بينهم ، وأرسلوا واحداً منهم إلى مدرسة الجمالية ، فاتفق لهم مع شاب من المعلمين في هذه المدرسة على أن يلقنهم الانجليزية أربع ساعات في الاسبوع ، وينقدوه جنيها آخر الشهر ، وكانوا أربعة . وتستطيع أن تصدقني حين أقول لك إنهم كانوا يشقون على أنفسهم حين يدفع كل منهم نصيبه من هذا الجنيه :

وجاء الشاب ونصب على الحائط لوحته السوداء ، واستطاع أن يعلمهم حروف الهجاء ، ثم أخذ يعلمهم كيف يلوون الألسنة ، ويمدون الشفاه ، ويوسعون الحلوق ، ويباعدون بين الألسنة وسقف الفم ، لينطقوا بهذه الرطانة الإنجليزية : ولقد تعب الشاب ، وتعبت الجماعة ، ولكنهم لم يصلوا الى طائل . وكنت أنا حينئذ في زاوية من زوايا الغرفة أجلس القرفصاء ، وقد انعطف اعلاي على أسفلي ، فكأني كرة ، وأشهد أني انتفعت بهذه الدروس فأعانتني بعد ذلك بسنين طوال حين اردت أن أتعلم الانجليزية. لا أعرف هذا الشاب المعلم ولا أذكر اسمه ، ولكني مدين له ، لأنه علمني كيف ألوي اللسان ، وأمد الشفتين ، وأخرج هذه الرطانة الانجليزية .

واجتمع اصحابنا ذات يوم إلا واحداً منهم ، واذا هم في ثورة واضطراب ، يضحكون ويغرقون في الضحك ، ويتهامسون فيما بينهم بحديث لم أكن أتبينه ، ثم يضحكون ويغرقون في الضحك — والاطفال مكرة مسرفون في المكر — فقد أحسست حينئذ أن بين القوم سراً يلهيهم ويضحكهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا به لمكاني منهم . وما هي إلا أن أحتال حتى أنسل من الغرفة التي كانوا فيها إلى دهليز ضيق كان أمامها فيه جرة الماء من ناحية ، وفيه من ناحية أخرى صندوق من الخشب طويل عريض، كان يحوي كتب أخي ؛ وإلى جانب هذا الصندوق صندوق آخر أعرض منه وأعمق وأقصر ، كان فيه ما شاء الله من خبز وعسل وسمن ومتاع ، فأنسل أنا من تلك الغرفة الى الدهليز وآوي الى الزاوية بين الصندوقين فأجلس القرفصاء مسنداً ظهري الى الحائط ، معتمداً بشمالي على صندوق الكتب ويميني على صندوق الخبز .

كم ضحكت في هذه الجلسة الغريبة حين أحس الجماعة أنهم أحرار ، وخيل إليهم أني تركت البيت ، وجلست كما كنت أتعود أن أجلس أمامه في هذه الطريق الضيقة التي كانت تمتد وما تزال تمتد فيما أظن بين البيوت في ربع السلحدار .

عرفت في هذه الجلسة ما كان يضحك القوم ، ذلك أن صاحبهم الذي كان غائباً قرأ من أيام فصلاً للشيخ أو لغير الشيخ في إحدى المجلات ، فتأثر بما قرأ ، وعاهد نفسه على حماية الدين وتطهير المسلمين من البدع والفساد ، وكتب على

ورقة ألصقها بالحائط أمامه هذه الجملة : حررت نفسي لخدمة الدين .

ثم فكر في أول عمل يأتيه لخدمة هذا الدين ، فخطر له أن يذهب إلى حيث الفساد أشد انتشاراً ، وإلى حيث الإثم أبعد في النفوس أثراً ، فيحارب الرذيلة في موطنها ، ولكنه لم يجرأ أن يتحدث بعزمه هذا إلى أصدقائه وزملائه ، فجمع اليه نفراً من الطلاب المحدثين من بلده فيهم سذاجة وقلوب طيبة ، وفيهم ابن عم له ضئيل البصر جداً ، وعرض عليهم رأيه هذا فأقروه وانتدبوا لمعونته . فلما أشرف الليل أو كاد ، خرج خمسة القوم من حوش « عطي » ، ومضوا حتى وصلوا إلى حيث دور الفسق والدعارة يريدون الوعظ والارشاد . فلم تكد تراهم المومسات حتى هممن بهم متضاحكات يدعون ويغرين . وهم أصحابنا أن يعظوا ويرشدوا ، فانعقدت الالسنة ونضب الريق وجفت الحلوق . واستمر أولئك النساء يعبثن ، وما هي إلا أن أحس الوعاظ أنهم في خطر ، فاذا هم يهرولون ، ومنهم من يتعثر في جبته ، ومنهم من يتعثر في عباءته ، والنساء من خلفهم يدعون ويغرين ويتضاحكن ، حتى انتهوا الى درج في أقصى الشارع تدافعوا إليه ، فتزل أقدامهم فيتساقطون ، وقد فقد هذا عباءته ، وطاحت عن رأس ذاك عمامته ، وعادوا مع العشاء الى بيوتهم . وإن قلوبهم لتجف هلعاً ، وإن وجوههم لممتقعة أشد الامتقاع .

وعرف الجماعة يومئذ أن ليس من اليسير اجتثاث الرذيلة

من أصلها ولا محاربة الشر حيث ينبت. وزالت عن حائط صاحبنا هذه الورقة التي كانت تذكره بأنه قد رصد نفسه لخدمة الدين .

وطائفة أخرى من الخواطر — لا أكاد أحصيها — كانت تضطرب في نفسي على ظهر السفينة، والقوم من حولي في جدهم ولعبهم ، ولكني لا أستطيع ولا أريد أن أسطر من هذه الخواطر شيئاً الآن ، وإنما كانت تضطرب كل هذه الخواطر في نفسي حول ارتقاء الشيخين إلى منصب الرياسة الدينية العليا ومنصب الافتاء .

هذان تلميذان من أخص تلاميذ الشيخ محمد عبده به ، وأقربهم إليه ، وأشدهم إيماناً بمذهبه ، واقتناعاً بدعوته الى الاصلاح ، وحرصاً على أن تعود للأسلام — كما كان يريد الشيخ — مكانته العالية ، فيؤثر في نفوس المسلمين ، وتظهر عليه الهيبة والجلال أمام غير المسلمين ، وعلى أن يكون الازهر — كما كان يريد الشيخ — مهداً وملجأ ومنبعاً لهذا النور الاسلامي الجديد ، الذي يجب أن يغمر البلاد الاسلامية كلها ، فيجتث منها أصول الشر وينكس فيها أعلام البدع ، ويعيد فيها الى القلوب ما كان لها أيام السلف من نضرة وطهارة ، ثم يتجاوز هذه البلاد إلى بلاد الديانات الاخرى ، فيدعو الى دين الله في دعة ولين ، وإقناع بالحجة والموعظة الحسنة .

هذان تلميذان من أخص تلاميذ الشيخ به وأقربهم إليه ، قد ارتقى أحدهما إلى حيث لم يستطع الشيخ نفسه أن يرتقي ،

فأصبح شيخ الازهر ، ورئيس المعاهد الدينية ، وزعيم الهيئة الجديدة التي يسمونها هيئة كبار العلماء . ووصل أحدهما الآخر الى حيث كان الشيخ فجلس على كرسيه وتلقب بلقبه وأصبح مفتياً للديار المصرية ، أو قل مفتياً للبلاد الاسلامية . أفتراهما يذكران الآن ما كان يملأ نفسيهما حين كانا يختلفان في الأزهر الى دروس الشيخ ؟ أفتراهما يجدان فيما كان الشيخ يريد أن يجد فيه ، من احياء الاسلام على وجهه حراً سمحاً طلقاً ، صديقاً للحياة والحضارة والعلم والادب ، عدواً للجمود والتقليد والكيد والفناء في المستبدين وتأييد سلطتهم المطلقة ؟

نعم لأول مرة منذ مات الشيخ وصل تلاميذه الى حيث السلطان والقدرة على العمل والنفع . أفترى هؤلاء التلاميذ لا يزالون تلاميذ الشيخ يذكرونه ويتأثرونه ، أم هي الحياة العملية وما يحيط بها من ظروف مختلفة قد تضطرنا إلى أن نقتنع مرة أخرى بأن الشيخ قد مات ؟ ومع ذلك فلم يحتج الإسلام في يوم من الأيام الى أن يفيق المسلمون فيحوطوه ، ويذودوا عنه كما هو محتاج الى ذلك في هذه الأيام ....

كم احب ان يقرأ الشيخان بعض ما نقرأ ، وان يريا بعض ما نرى ، وان يقدرا نشاط رجال الديانات الاخرى في انواع العلم على اختلافها ، وضروب الادب على تنوعها ، وصنوف الفن على تباينها ، حتى لقد زاحموا العلماء والادباء والفنيين : ولست اغلو ان قلت ان منهم من بذّ هؤلاء وتفوق عليهم .

لن يكون اصلاح الازهر حقيقة واقعة مثمرة الا اذا قام

الاصلاح على هذه القاعدة التي لا قوام للاصلاح بدونها ، وهي ان الدين لا ينبغي ان يحول بين اهله وبين ضروب النشاط المختلفة للعقل والشعور والجسم ، بل لن يستطيع الدين ان يحيا آمناً الا اذا أباح لاهله ان يأخذوا بحظوظهم من هذا النشاط على اختلافه وتنوعه .

هل يقدر الشيخان ما يطلب اليهما من عمل ؟ بل هل كان الشيخ محمد عبده نفسه يقدر مهمته ؟

هل يعلم الشيخان ان مهمة الشيخ كانت يسيرة جداً بالقياس الى عصره ، على حين أصبحت مهمتهما شاقة شديدة العسر ؛ لان ظروف الحياة العامة في مصر وفي البلاد الاسلامية قد تغيرت أشد التغير في هذه الاعوام الاخيرة ، حين اشتد الاتصال بين الشرق والغرب ، وأخذ سلطان الحضارة الغربية والتفكير الغربي يستأثر بعقول المسلمين .

٧

أكانت باريس التي رأيتها هذا العام كباريس التي رأيتهـــا منذ عامين ؟

اما الدور والشوارع والعمارات والملاعب والمعاهد فهي هي، لم تتغير أو لم تكد تتغير. ولكن الذين عرفتهم وتعوّدت ان أراهم أو اسمع الحديث عنهم في هذه الناحية الصغيرة من الحي اللاتيني قد مضى اكثرهم ، ولم يكد يبقى منهم احد ؛ ومنهم من كان إنما استوطن باريس ليتجر فيها طلباً للثروة والسعـــة ، فلما ظفر منها بحظه ترك باريس الى حيث يصبح من أغنياء الاقاليم ، أو من اهل الدعة والمكانة .

وكذلك لم ألق البوابة التي كنت اعرفها في البيت أيام الطلب، والتي كنت احب ان أسمع اليها تصف علمها ودرايتها وحسها وشعورها ، بينما تكنس السلالم أو تمسحها .

ولم الق البوابة الاخرى التي خلفت هذه والتي كانت على حظ عظيم من المرح والنشاط ، تشرب ما استطاعت ، وترقص ما استطاعت ، وتداعب من المختلفين الى البيت من تجد الى مداعبته شيئاً من الراحة .

فوجدت مكان هذه وتلك بوابة اخرى جديدة ، تتسلط على السكان وتحكم فيهم بأمرها ، مستبدة مسرفة في الاستبداد ، فارضة عليهم ما تشاء من العقوبات اذا قصروا في ذاتها بعض التقصير . أليس بيدها بريد البيت ، تستطيع أن تؤخره وأن تحبسه وأن تضيعه ؟ أليس اليها يتجه الزائرون قبل أن يصعدوا الى طبقة من طبقات البيت ؛ فهي تستطيع ان تجيبهم بما شاءت من جواب ؛ بأنك في البيت أو بأنك قد خرجت . أليس اليها تتجه السلطة حين تريد ان تتعرف من امر السكان ما تحتاج اليه لفرض الضرائب ؟ فهي تستطيع ان تصورك غنياً وفقيراً ومتوسط الحال . ولا بد لك اذا كنت تريد الحياة الهادئة من ان ترشوها وتتملقها وتتوسل اليها بمختلف الوسائل ، فإن لم تفعل فحياتك منغصة من غير شك .

نعم ، وقد افتقدت بائع الخضر الذي كان يحب المزاح ، والذي كان يحمل أمتعتي كلما سافرت من باريس أو عدت اليها ، وافتقدت بائعة اللبن التي كانت سيئة الخلق ؛ تخيف المختلفين اليها ؛ وتملؤهم رغباً وفزعاً .

وانا اسأل عن الظاعن وعن المقيم ، وأجد في السؤال والجواب لذة وذكرى يملؤها الحنان .

ولكن ليس هذا كل ما طرأ على باريس او عـــلى حيي في باريس من صنوف التغيير ؛ فقد حدث في هذا الحي كما حدث في غيره من احياء باريس شيء جديد لم اكن اعرفه ، وقـــد احتجت الى زمن طويل لأتعوده ، وتركت باريس ولمّـا تطمئن نفسي اليه فوجدته في غير باريس وكأن الله قضى بان اجده امامي حيثما توجهت في فرنسا فأضيق به ، وأحتمله عـــلى كره . وهو مستقر متسلط في هذه الطبقة السادسة من هذا البيت الهادىء في هذه الغرفة الضيقة المسرفة في الضيق التي طالمـــا قضيت فيها الساعات الطوال الى كتاب من كتب الفلسفة او التــاريخ هادئاً مطمئناً . لا اكاد اسمع الى ضوضاء السيارات ثقيلها وخفيفها . وهو مستقر متسلط في مدخل هذا الفندق الذي عرفته منذ عامين صامتاً شديد الصمت ، ساكناً مغرقاً في السكون . وهو مستقر متسلط في حوانيت الباعة على اختلافها. ماذا اقول ؟ بل مستقر متسلط في المحطات ، حيث تعودنا الا نسمع الا صفير القطر وضجيجها ، وصياح العمال وحملة الامتعة وذلك هو الراديو...

قد انتشر في باريس وانتشر في فرنسا بل في أوروبا انتشاراً مخيفاً ، كما تنتشر الامراض المعدية، او كما تنتشر الصحف التي تنشر الاخبار والقصص السهل وتباع بثمن زهيد .

نجده في غرفة البوابة ، ونجـــده في كل طبقة من طبقات البيوت ، ولا تكاد تخطو في باريس الهادئة المطمئنة خطوة دون ان تسمع هذا الصوت الذي لا هو بصوت الرجال ولا بصوت النساء، وانما هو شيء بين بين ، يخرج من الانف متغنياً متحدثاً،

ممثلا خطيباً ، معلناً مفتناً فيما شاء الله من فنون الجد واللهو ، التي تعودتها الجماعات في البلاد المتحضرة . وقد نظم امر الراديو ، كما نظمت الصحف تنظيماً ديمقراطيا دقيقاً ، مـلاكه السرعة والكثرة والرخص . فقد مضى ذلك العصر الذي كان الجمال الفني فيه مقصوراً على الاغنياء واصحاب اليسار ، واصبـح من حق الناس جميعاً ان يتعلموا ويقرأوا ، ويشهدوا التمثيل، ويسمعوا الموسيقى ، ويعرفوا اخبار الارض كلها ، واخبـار السماء ان ان كانت للسماء اخبـار. ولا قيمة للديموقراطية اذا لم تسوّ بين الاغنياء والفقراء في الاستمتاع بهذه الحظوظ من لذات الحيـاة وآلامها .

والديمقراطية جادة في اداء واجبها ؛ فهي تمحو الفروق بين الطبقات ، وتجعل الناس سواسية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ؛ كل النـاس يستطيع الآن ان يقرأ الصحف ، والصحف تنافس اشد التنافس في ان تحمل الى الناس جميعاً من الاخبار والآثار الأدبية والعلمية والاقتصادية والتجارية أضخم مقـدار وأيسره هضماً . ولكن القراءة تحتاج الى وقت ، وهي تصرف القارىء عن كثير من الاعمال.وهناك اشياء لا يمكن ان يقرأها الناس جميعاً واشياء لا يمكن ان يسمعها النـاس جميعاً ، واشياء لا يمكن ان يشهدها الناس جميعاً ؛ ومن الحق على الديمقراطية ان تقرب هذه الاشياء كلها الى الناس جميعاً . وقد وفقت الديموقراطية بفضل العلم الى هذا التقريب ، فاصبح اشد الناس فقراً في فرنسا يستطيع – في غير مشقة ولا جهد ، ولا انصراف عن العمل –

ان يأخذ بحظه من كل اللذات التي يمكن ان تصل الى النفس من طريق السمع . يكفي انتشترك في الراديو– وليس الاشتراك فيه شاقاً ولا كثير النفقة – فتقرأ عليه الصحف مرات في كل يوم؛ واذاذكرتالصحف فاناأستعمل الكلمة في معناها الدقيق.فتصور صحيفة من الصحف وما فيها من المواد : من الاخبار والمقالات الادبية والعلمية والقصص ، وأنباء السوق والبورصة ، واخبار البلاد الأجنبية ، وكل ما يمكن ان تشتمل عليهصحيفة خليقةبهذا الاسم : واعلم ان هذا كله يتلى على المشترك في الراديو مرة على الاقل في كل يوم .

ثم ليس الامر مقصوراً على هذا ، وانما يحمل الراديو الى المشتركين فيه ما يكون فيالملاعب ودور الموسيقىواللهو من تمثيل وعزف وغناء ومرح . ذلك كله دون ان يتكلف المشترك من المشقة الا ادارة زر من ازرار الكهرباء ، فاذا سئم او مل ادار الزر مرة اخرى فيقطع الصوت ويعود الهدوء . قد أثر هذا في الطبقات الفقيرة التي كان من العسير عليها جداً ان تختلف الى الملاعب ودور اللهو ، والى المحاضرات ومعاهد العلم ، او انتجد من الوقت ما يمكنها من القراءة والاخذ بحظ من الثقافة العامة ؛ قد اثر هذا في التقريب بين الطبقات من ناحية ، وفي نشر الثقافة والغاء المسافات بين الامم من ناحية اخرى، فتستطيع ان تفهم أمر هذه الخادم التي اخبرتني بانها اذا كان الليل آوتالىسريرها واشعلت سيجارتها ، واستلقت تدخن وتسمع لهذا الراديو ، وهي تستفيد من هذا كله ، وتستطيع ان تحدثك الآن عن

الكتاب والشعراء والعلماء والموسيقيين. وهي تعتقد أن ليس بينها وبين غيرها فرق في تصور الاشياء والحكم عليها . أما ان هذه الاداة الجديدة من أقوى أعوان الديموقراطية على نشر الثقافة والمساواة فشيء لا شك فيه . ولكن من يدري ؟ لعل هذه الاداة الجديدة من أشد الاشياء خطراً على الديموقراطية نفسها ... فهي تنشر المساواة والثقافة بغير حساب وفي غير تقدير . وهي لا تدري أين تلقي ما تلقي من البذور ، وهي لا تعلم مقدار استعداد المستمعين لها لإساغة ما تنقل اليهم من المواد، وهي توشك بإسرافها في نشر المساواة أن تكون أداة للشيوعية ، وتوشك باسرافها في نشر الثقافة أن تكون أداة للغرور.

وكذلك تخلق الديموقراطية والعلم من الأشياء والأدوات ما هو عدو للديموقراطية والعلم .

ولكن لهذه الاداة الجديدة نواحي لا تخلو من فكاهة وجد ؛ فتصور خطيباً من الخطباء ، أو ممثلا من الممثلين ، أو استاذاً من الاساتذة يتحدث أو يخطب أو يمثل ، وهذه الاداة تنقل عنه ما يقول الى أطراف من الارض يجهلها هو، ويجهلها غيره من الناس، وتصور موقع خطبته أو درسه أو تمثيله في نفوس الذين يستمعون له وهم بين معجب وساخط ومزدر . أما أنا فأتمنى لو وفق العلم الى أن يرد الى الخطيب والاستاذ والممثل الآثار المختلفة التي يحدثها في نفوس المستمعين اليه. إذن لأحجم كثير من الخطباء والممثلين عن التحدث الى هذه الاداة . وماذا عسى كان يقول المرشال فوش ، أو وزير الحربية الفرنسية ، لو ردّت اليهما هذه الاداة

يوم كانا يخطبان في حفلة من حفلات مدرسة الهندسة ما كان يقول ابناي وهما يستمعان لها ، وما كانا يتبادلان من رأي في أصواتها وأنغامها ، وما كان يطلبان اليها من صمت سريع .

بل ماذا عسى كان يقول هذان الخطيبان لو ردت اليها هذه الاداة ما كان يلقاهما به الاشتراكيون والشيوعيون من ألوان السخط والنقمة والوعيد ؟

على أن لهذه الاداة يداً عندي ! فكثيراً ما استمعت لصحيفتها التي كانت تتلوها في المساء ، وكثيراً ما نقلت الي من أخبار مصر ما لم أكن أنتظر أن اظفر به الا بعد أيام حين تصل الي الصحف المصرية .

٨

اريد الليلة أن أضحك ، وأن أضحك في انتفاع واستفادة . فما هي إلا أن أقصد الى احد الملاعب ، أو الى احد هذه الملاهي التي لا توجد إلا في فرنسا ، بل لا توجد إلا في باريس ، واذا أنا أمام طائفة من الاغاني الهجائية فيها ألذّ ما يسمع ويضحك، ويدعو الى التفكير والعبرة والعظة .

بالقرب من السوربون يقوم ملهى يسمى **Les Noctambules** لا استطيع ان أذهب الى باريس دون أن ازوره، وقد زرته هذه السنة ، فمهما أقل فلن أستطيع أن أصف لك ما وجدت فيــه من لذّة مضحكة باعثة على التفكير . ليس في هــذا الملهى شيء غريب . وإنما هم جماعة من المغنين الهازلين يتعــاقبون أمامك، يسمعك كل منهم طائفة من الأغاني لا جدّ فيها ، أو قل كلها جد ، ولكنها صيغت في صيغة الهزل . وقد أرادت المصادفة أن أصل الى باريس هذه السنة بعد انتهاء الانتخابات البرلمانية ، وأن

تكون الاغاني التي تسمع في هذا الملهى كلها متصلة بالحياة الفرنسية السياسية. فلو قد سمعت هذا العبث الذي لاحد له برئيس الجمهورية، ورئيس الوزارة، والوزراء والنواب والشيوخ، والبرامج السياسية لأولئك وهؤلاء والجمهورية نفسها، ونظم الحكم الاخرى — لسألت نفسك الى أي حد من الفوضى يريد ان يصل الفرنسيون. ذلك أنهم لا يحفلون بشيء، ولا يقدرون شيئاً، ولا يرعون للنظام ولا قانون حرمة ولا ذمة، وإنما يعرضون عليك كل شيء عارياً مجرداً، يظهرون لك منه أقبح ما يمكن ان يظهر، لا يكرهون أن يتناولوا حياة رئيس الجمهورية الخاصة بأقبح ما يمكن ان يتناول به من ألفاظ التشنيع. فأما رئيس الوزارة القائمة بوانكاريه فالفرنسيون يحبونه، ولكن ذلك لا يعفيه من أن يعرض عليك في اقبح صورة، وافظع شكل. واذا المغنون يعبثون به خطيباً، ويعبثون به وزيراً، ويعبثون به منقذاً للمالية الفرنسية، ثم يتناولون معدته وامعاءه وكبده وكلاه. وقل مثل ذلك في وزراء فرنسا وزعمائها. فاذا فرغ المغنون من السياسة والساسة التفتوا الى العلم والعلماء، وكم تلقى السوربون ورجالها من سخرية هؤلاء الساخرين! وأغرب ما في الامر أن كثيراً جداً من هذه الاغاني الهجائية يخرج من السوربون نفسها، ينشيء بعضه الطلاب، ولعل من الاساتذة من لا يتحرج عن انشاء بعضه الآخر.

٩

وفي باريس ملعب Palais Royal لا يعرف باريس من لا يعرفه ، ولا يزور باريس من لا يزوره ، ولا يصل الى حقيقة النفس الفرنسية من لم يختلف اليه ، ويتذوق ما يلعب فيه . وكيف تفهم أثينا من غير ارستوفان ؟.

اذن فلعب Palais Royal من باريس هو كملعب ارستوفان من اثينا في القرن الخامس قبل المسيح . في هذا الملعب الباريسى الصغير تظهر من النفس الفرنسية ناحيتان مختلفتان : احداهما حلوة جداً ، والاخرى مرة جدا ، وكلتاهما مضحكة تحمل على الإغراق في الضحك . وانا زعيم لك — اذا شهدت ما يلعب في هذا الملعب وفهمته على وجهه — ان تضحك كما لم تتعود ان تضحك قط ؛ وان تضحك بعد فراق الملعب بيوم وايام ، وان تضحك كلما ذكرت هذه القصة التي شهدتها . واني لأذكر الآن قصصاً شهدتها منذ عشر سنين ، فلا استطيع ان ادفع الضحك عن شفتيّ .

في هذا الملعب الصغير تعرض عليك الحياة الفرنسية كلها : أدبها ، وسياستها ، وعلمها ، وتجارتها ، وزراعتها ، وطبقات الشعب المختلفة فيها . على الا يظهر الممثلون من هذا كله الا ما هو خليق بالنقد ، حري ان يبعث الاستهزاء والسخرية . شهدت فيه هذا العام قصتين فلن انسى ثانيتهما التي كان موضوعها الوزراء الفرنسيون في حياتهم الخاصة بين ازواجهم وخليلاتهم . ومهما أنس فلن انسى أحد هؤلاء الوزراء وقد كلف بفتاة كانت تعمل في مكتبه ، وما يزال بها حتى ترتفع بينهما الكلفة ، واذا هو قد نسي نفسه ومكانته ومنصبه وامرأته وكل شيء ، واصبح رجلا من عامة الشعب امام امرأة من عامة الشعب ، واذا هو مستلق على الارض يعبث بيديه ورجليه ، ويمتلىء فمه بالضحك وأشنع ألفاظ المزاح . ويدخل رئيس الوزراء فيرى زميله في هذه الحالة فهو دهش مبهوت ، ولكنه لا يكاد يخلو الى هـــذه المرأة حتى يكلف بها ، واذا هو يكيد لزميله ، واذا هو يتملقها ويتقرب اليها ، واذا الكلفة قد ارتفعت بينهما ، واذا انت تسمع مـــن الرئيس مثل ما كنت تسمع من صاحبه ، ولكنك تضحك من الرئيس اكثر مما كنت تضحك من صاحبه ؛ لان هذا الرئيس قد اتخذ في شكله وحديثه وحركاته ما يذكرك او يفرض عليك ان ترى وزيراً من وزراء فرنسا القائمين ، كان رئيس وزارة فيها عشر مرات ، ويبلغ الضحك اقصاه حين تسمع هـــذا الرئيس يسمى نفسه ارستيد Aristide

على ان للهزل في ملاهي باريس وملاعبها الواناً مختلفة وفنوناً

متباينة . فأنت تشهد في بعض الملاعب هذا الهزل المريح الذي يقصد به الى الضحك ليس غير ، لا يدعوك الى تأمــل ، ولا يضطرك الى تفكير ، ولا يخيل اليك انه يمثل الحياة او ناحية من الحياة ، وانما انت مقتنع منذ ترى اول التمثيل انك امـام هزل خالص لا اكثر ولا اقل .

هذه القصة التي شهدتها تمثل الموتى في الدار الآخرة وهم يعبثون في الجنة ضروباً من العبث تشبه عبثهم في الدنيا ، ومنهم من يحتـــال على بواب الجنة حتى يظفر بالاذن في ان يهبط الى الأرض اول النهار على ان يعود الى الجنة منتصف الليل ، فإذا هبط الى الارض رأى ارملته وقد كادت تفتن برجل من الاحياء فما يزال بها وهو متنكر حتى يصيبها ويصرفها عــن خصمه ، حتى اذا كانت ساعة الصعود الى الجنة أبت صاحبتــه الا ان تصعد معه ، وخيل اليها انه صاحب طيارة ، فتطير معهواذا هي في الجنة . ثم تنتهي القصة واذا كل ما فيها حلم حلمه رجل بعد أكلة دسمة ، وشراب كثير .

فان اردت الجد فما اكثر ملاعب الجد ، وما اكثر ما يعرض فيها من الفنون ، منها القديم ومنها الجديد ، منها الهادىء ومنها العنيف ، منها ما يقصد الى التسلية والعظة ، ومنها ما يقصد الى الدرس والبحث . ومثل ذلك في الموسيقى الجادة والموسيقى التي تتوسط بين هذا وذاك . ولديك الموسيقى الخالصة لا تسمع فيها الا الادوات الموسيقية يصحبها الغنــاء ، والموسيقى يصحبها الرقص والغناء جميعاً .

ولديك في باريس فنون أخرى تلهيك عن نفسك ان كنت لا تريد ان تعود اليها . وانت تستطيع ان تأخذ بحظك من هذه الفنون في اي ساعة شئت من ساعات الليـــل ، وفي اي ساعة شئت من ساعات النهار ، وفي اي فصل شئت من فصول السنة.

ثم يزعم بعض الناس على ذلك ان باريس ليست مدينة فرحة مبتهجة ، ولست ادري اذا لم يكن الفرح والابتهاج في باريس فأين يكونان ؟

كلا ! في باريس الفرح والابتهاج ، وفيها البؤس والحزن ، وفيها الرجاء والأمل ، وفيها اليأس والقنوط ، فيها اجتمع كل ما يحتاج اليه الناس وكل ما لا يحتاجون اليه . فيها اجتمع كل ما يشخص الحضارة الانسانية في هذا العصر الذي نعيش فيه .

١٠

ولذه اخرى اجدها حين ازور فرنسا . ولعلى استطيع أن اجدها في أي بلد آخر ، ولكنها في فرنسا قوية اشد القوة متنوعة اشد التنوع خصبة اشد الخصب . هذه هي اللذة التي تجدها حين تزور الآثار والمعالم التي تحدثك عن الماضي القريب أو البعيد .

ليس في الارض بلد متحضر الا وله قديمه وحديثه وآثاره ومعالمه ، ولكن للاثار الفرنسية والقديم الفرنسي فضلا على غيرها من الآثار ؛ فهي سهلة يسيرة يمكن ان يفهمها الناس جميعاً ، وان يجدوا في فهمها لذة وعظة وعلماً ، على اختلاف حظوظهم من الثقافة ، وعلى اختلاف اوطانهم وبيئاتهم . ليس كل الناس يستطيع ان يسعد ويلذ بزيارة الآثار اليونانية والرومانية والمصرية والاشورية والبابلية ؛ بل لا بد لتحقيق اللذة والسعادة بزيارة هذه الاثار من حد ادنى من الثقافة والعلم . واني لأعرف علماء وقفوا امام الأهرام وامام معابد الكرنك دون ان يحسوا شيئاً ،

وإني لأعرف مثقفين يمرون بأثينا وروما فلا تحيي في نفوسهم هاتان المدينتان شيئاً ، ولا تبعث فيها خاطراً ، ولا تثير فيها عاطفة .

فاذا زرت الآثار الانجليزية والالمانية فأنت مغتبط بهذه الزيارة ؛ لأنك رأيت شيئاً يجب ان تراه ويحسن ان تراه . فأما هذه اللذة الخاصة التي تحدثها في النفس زيارة الاثار عند فهم هذه الاثار – فلن تجدها امام الآثار الانجليزية والالمانية الا اذا كنت على حظ من الثقافة ، وبذلت مقداراً من الجهد . اما الآثار الفرنسية فأيسر من ذلك وادنى الى النفس والى الحس معاً . لا بد لك من ثقافة ولا بد لك من جهد يختلف قوة وضعفاً اذا اردت ان تفهم الآثار الفرنسية على وجهها كما يحب العلماء ان يفهموا الاثار . ولكنك مرغم على ان تجد شيئاً من اللذة والسعادة وان لم تكن مثقفاً ، وان لم تكن حريصاً على الفهم والتعمق في العلم حين تزور الآثار الفرنسية ؛ لأن هذه الاثار تعرف كيف تتحدث اليك ، وكيف تسترعيك وتلفتك اليها .

تستطيع ان تزور قصر فرساي ، فلا شك في ان لذتك لا تعدلها لذة اذا كنت تعرف تاريخ فرنسا السياسي والفني والادبي حين تزور هذا القصر ، وترى ما يمثل من هذا كله . ولكن هبك لا تعرف من هذا التاريخ شيئاً ، فانت واجد على كل حال لذة قوية في قصر فرساي ؛ ذلك لان هذا القصر وما فيه يلفتانك بهذه المظاهر الجميلة التي لا يستطيع الحس ان يمر بها دون ان

يقف عندها ، و يمنحها حظاً قليلا او كثيراً من الاعجاب. فاذا سمعت هذه الاحاديث التي يلقيها عليك الأدلاء في غير عناية ولا تحقيق ، و كنت تفهم الفرنسية بعض الفهم ، فستحيي في نفسك هذه الاحاديث عواطف وضروباً من الشعور لها في نفسك أثر بعيد . في هذه الغرفة كان لويس الرابع عشر يفعل كذا و كذا ، وفي هذه الغرفة كان لويس الخامس عشر يلقى فلاناً و فلاناً او قل فلانة وفلانة ، وفي هذه الغرفة كانت فلانة من خليلات هذا الملك او ذاك تفرغ لزينتها ، وفي هذه الغرفة اتخذ هذا الملك او ذاك من القرارات ما كان له في حياة الفرنسيين ثم في الحياة الاوروبية ثم في الحياة العالمية أبعد الاثار واقواها .

ولم أصف لك ولن استطيع ان اصف لك مظاهر الفخامة والترف والابهة في العصور الفرنسية الحديثة ، فقد اجتمع من هذه المظاهر المختلفة في هذا القصر ما وضعت فيه الكتب الطوال والاسفار التي لا تحصى .

وكنا في هذا القصر مع طائفة مختلفة من الناس تمثل طبقات متباينة ، وحظوظاً من الثقافة متفاوتة ، ولكننا كنا جميعاً نشترك في مقدار من اللذة والرضا ، ثم نتفاوت بعد ذلك في طبيعة هذه اللذة وهذا الرضا . وكان معي ابناي وهما طفلان . واستطيع ان اؤكد ان رضاهما وابتهاجهما لم يكونا اقل من رضاي وابتهاجي ، ولعلهما كانا اشد وأحد . ذلك في القصر . فاما الحديقة وطرقها وتماثيلها واحواضها فحدث عما تبعث في النفس من لذة ، ولا

تخش ان تتهم بغلو أو باسراف . وليس قصر فرساي بالقصر الوحيد في فرنسا ، ولكنه قصر من قصور وأثر من آثار ؛ فكل ما قلته واكثر مما قلته يمكن ان يقال في قصر فونتنبلو أو في قصور اللورا او في قصر كومبيين او غيرها من هذه القصور المنبثة في اقطار فرنسا ، والتي تمثل حياة هذه البلاد في القرون الوسطى وفي العصر الحديث اصدق تمثيل واقواه .

لم كانت هذه الآثار انطق وافصح من غيرها من الآثار القديمة والحديثة ؟ لأنها فيما اظن تمثل حياة شعب مهما يوصف بـه من ضروب العيوب والقصور فلن ينكر عليه انه شعب سهل صريح قريب الى غيره من الشعوب ، لا غموض فيه ولا عسر ولا التواء ، تستطيع ان تقرأ التاريخ الفرنسي والادب الفرنسي والفلسفة الفرنسية والعلم الفرنسي وان تنظر في الفن الفرنسي على اختلافه ، فسترى في هذا كله خصلة مشتركة تميزه من غيره عند الأمم الاخرى وهي الوضوح والجلاء . لا يخطىء الفرنسيون حين يتحدثون عن انفسهم في شيء من الفخر والاعجاب فيقولون انهم يقومون من امم هذا العصر الحديث مقام اليونانيين من امم العصر القديم .

١١

ولذةاخرى اجدها حين أزور فرنسا – وهل تنقضي لذاتي حين أزور فرنسا ؟ – هي هذه التي اجدهـا حين انغمس في الحياة الفرنسية الصرفة بقراءة الصحف والكتب والمجلات .ذلك اني لا افهم زيارة بلد من البلاد الا اذا كانت الغاية من هـذه الزيارة قبل كل شيء وبعد كل شيءتعمّق هذا البلد،والاتصال بحياته الحقيقية الداخلية ، والوقوف على اسرار هذه الحيـاة ، وعلى هذه الامور الخفية التي تبعث الافراد عـلى ان يعملوا ، والجماعات على ان تجاهد بعضها بعضاً ، ويمكر بعضها ببعض ، ويتغلب بعضهاعلى بعض .لغيري من المصريين ان يفتن بالطبيعة وجمالها . ولغيري من الفنيين ان يفتن بالعمارة والتصوير والنحت. ولغيري من المؤرخين ان يفتن بالآثار وما يتصل بها من مصادر التاريخ .

ولست أزعم ان هذه الأشياء لا تعنيني ، ولكني ازعم ان

الذي يعنيني قبل كل شيء حين أزور بلداً من البلاد انما هم أهل هذا البلد ، واساليبهم في التصوّر والحس والشعور والحياة بوجه عام .

وليس من اليسير على الاجانب اذا وصلوا الى فرنسا ان يتصلوا بالفرنسيين اتصالا صحيحاً ، وان يروهم كما هم ؛ فالفرنسيون – وان رأى الاجانب فيهم غير ذلك – مغلقون دون الغرباء ، لايظهرون انفسهم للزائرين الا بمقدار ، وهم لا يظهرون من انفسهم للاجانب الا ما يريدون إظهاره ؛ من لطف مبالغ فيه احياناً ، ودعة وحسن ضيافة تبعثها المنفعة في اكثر الأحيان ، وضروب من اللهو والدعابة والمجون تستهوي كثيراً من الافئدة الى بلادهم . فأما حياتهم الخالصة فيجب ان نلتمسها نحن وان نتكلف في التماسها شيئاً من العناء غير قليل .

يخطىء الاجنبيّ الذي يتصل في الملاعب والحانات ببنات اللهو والمجون حين يظن انه عرف الفرنسيين او عرف المرأة الفرنسية ، وخطؤه اشد واعظم حين يتخذ من هذه المعرفة الضئيلة الكاذبة وسيلة الى الحكم وتقرير النظريات .

إنما يلتمس الفرنسي في غير باريس ؛ في القرى وفي اعماق الريف ، في هذه الحياة المقفلة التي لم يتعود الاجنبي ان يتورط فيها والتي يظهر فيها الفرنسي كما هو ؛ جاداً كما تعود ان يجدّ ، هازلاً كما تعوّد ان يهزل ، مقتصداً كما تعود ان يقتصد ، ومسرفاً كما تعود ان يسرف .

وظاهر ان الوصول الى هذه الحياة ليس يسيراً لمن يقضي في

فرنسا اسابيع يلتمس فيها اللذة والراحة :

على ان هناك سبيلا اخرى للوصول الى ناحية من الحياة الفرنسية لا يسلكها المصريون اذا ذهبوا الى فرنسا عادة ، وهي الامعان في قراءة الصحف الفرنسية والكتب الفرنسية والامعان في تفهمها وتعرّف حقيقتها . اما انا فأجد في هذه القراءة لذة لا تعدلها لذة، ومع اني اقرأ كثيراً من الآثار الفرنسية في مصر ، فاني احب ان اقرأ الآثار الفرنسية في فرنسا ، ويخيـــل إليّ اني افهمها في فرنسا على وجههـــا ، ولا افهمها في مصر كما ينبغي ان تفهم ، كأن البيئة الفرنسية نفسها تخلع على هذه الآثار غشاء يجعلها اشد الى النفس قرباً ، وادنى الى الفهم والتعمق . وانها لقوية جداً هذه اللذة التي اجدها حين اقرأ ما يكون من الخصومة المتصلة بين الاحزاب السياسية، والخصومة المتصلة بين الادباء واصحاب الفن ، ومن هذه الشروح والتعليقات التي تتناول بها الصحف المختلفة اعمال الحكومة والحياة البرلمانية . وكم اقارن بين مانقرأ في مصر من هذه الآثار وما نقرأ في فرنسا . وكم يمتلىء قلبي حزناً حين افرغ من هذه المقارنة . لقد اقرأ الصحيفة الفرنسية فأجد في قراءتها متعة لا حد لها ، ثم تصل الينا صحفنا المصرية فلا اكاد امر بما فيها من العنوانات حتى أنصرف عنها انصراف المشمئز. في الصحف الفرنسيـة ثروة عقليـة ومتـاع للنفس والشعور ، وفي خصومتها السيـاسية لذة ؛ لان فيها ذكاء حـاداً ، وفيها رقة في اللفظ وفيها اصابـة في الجـدال ، وفيها على هذا كله براءة من السب والشتم ولغو الكلام وهراء الحديث.

فأما الفصول الادبية التي تنشرها هذه الصحف في كل اسبوع فحسبك ان كثيراً منها يستطيع ان يغنيك عن قراءة الكتب التي تتناولها هذه الفصول بالنقد والتقريظ . ذلك الى عنـاية غريبة باستقصاء الاخبار الداخلية والخارجية ، وحرص غريب على ان يكون القارىء ملماً بما يقع في العالم كل يوم في غير مشقة ولا عناء ، ثم حرص على ان يلم القارىء من حين الى حين باتصال الحياة العامة في الأمم ذات الخطر . فانت في هذا الأسبوع تقرأ في جريدة الطان Le temps فصلاً في ناحية من انحـاء الحياة الإنجليزية . وانت في الاسبوع الذي يليه تقرأ فصلا عن المانيا ، ثم فصلا عن إيطاليا ، ثم فصلا عن شمالي اوروبا ... على هـذا النحو ، كأنما أخذت الصحيفة الفرنسية عـلى نفسها عهداً ان تجعلك تشعر شعوراً قوياً بأنك فرد من افراد الإنسانية ، تحيا مع الانسانية كلها ، وتشعر مـع الانسانية كلها ، دون ان يخفى عليك من امرها شيء .

وعلى هذا النحو أفهم الصحف وواجبها في عصر الديمقراطية الحديثة ؛ فلست أظن ان للإنسانية في هذا العصر مثلا أعلى يعدل حرصها على ان يفهم بعضها بعضاً حق الفهم ، ويتصل بعضها ببعض اشد الاتصال ، وتتداخل فيها الحيـاة العقلية والشعورية كما تداخلت الحياة الاقتصادية والسياسية ، بحيث لا يمنع اختلاف الأوطان والاجناس والبيئات من ان تشعر الإنسانية بأنها وحدة متشابهة الأجزاء ، متحدة المنـافع ، مضطرة الى التضامن في كل شيء .

فأما الكتب فلا ينقضي عجبي من كثرة ما يصدر منها في فرنسا ، لا اقول في كل سنة ، ولا اقول في كل شهر ، وانما أقول في كل أسبوع . ويكفي ان تنظر الى الفصل البيليوغرافي الذي تنشره الطان مرة في كل اسبوع لتعرف ان الذين يرون ان فرنسا قد اخذت تضعف وتنحط لا يفقهون ما يقولون . ذلك الى أن الطان لا تعنى إلا بطائفة خاصة من الكتب. وهناك صحف اخرى تعنى بألوان اخرى من الكتب . وليس من الغريب ان يوجد في فرنسا من ينتجون هذا الانتاج العقلي العظيم ، وانما الغريب ان يجد هؤلاء المنتجون جميعاً قراءً لما ينتجون ، يمكنونهم من المضي في العمل والتنافس في الإنتاج .

كثيراً ما افكر امام هذا في حياتنا العقلية ، وانتاجنا الفني ، وكثيراً ما تحزنني هذه المقارنة ، كما تحزنني المقارنة بين الصحف هنا وهناك .

١٢

واذا كانت قراءة الصحف والكتب الفرنسية تلذني وتعجبني في فرنسا اكثر مما تلذني وتعجبني في مصر — فالتحدث الى الفرنسيين في بلادهم يترك في النفس أثراً يغاير كل المغايرة الاثر الذي يتركه التحدث الى الفرنسيين في مصر . ولعل هذا الامر ليس مقصوراً على الفرنسيين ، فمن المعروف ان كل انسان يتخذ لنفسه شخصيتين مختلفتين ؛ احداهما في وطنه حيث يعيش في اقل حظ ممكن من التكلف والنفاق الاجتماعي ، والاخرى في الغربة حيث تضطره الغربة نفسها ، وتضطره منافعه المختلفة المعقدة الى ان يتخذ لنفسه شخصية اخرى ، تباين الى حد بعيد شخصيته الطبيعية ، وحظ النفاق فيها اعظم من حظ الصراحة والاخلاص .

على ان الاجانب في مصر يختلفون من هذه الناحية اختلافاً عظيماً ؛ فمنهم من يسرف في ازدراء المصري والتعالي عليه ، لا

يتكلف ذلك ، ولايحتمل فيه مشقة ، وانما هو طبيعة له او كالطبيعة ، ومنهم من يسرف في تملق المصري والاسفاف في هذا التملق ، حتى يبعث في النفس شيئاً من الازدراء والاحتقار غريباً. وبين هذين الطرفين يضطرب الاجانب المقيمون في مصر، قليل منهم يظهر نفسه للمصريين كما هي ، وكثير منهم يغشي نفسه بغشاء من النفاق رقيق او صفيق .

والفرنسي في مصر متكلف ليس صريحاً، وهو لا يرسل نفسه على سجيتها . فيه غطرسة ولكنه يخفيها الى حد ما . وفيه تملق ولكنه يجمله بعض الشيء، هو صاحب منفعة قبل اي شيء آخر، ولكنه يجتهد في ان يخفي تأثير هذه المنفعة فيما بينك وبينه من صلة. وهو يراقب نفسه اذا تحدث اليك ، فلا يقول لك الا ما تريد ان يقول، لاما ينبغي ان يقول . فاذا وصلت الى فرنسا واستطعت ان تتصل بالفرنسيين الذين لا يرجونك ولا يخافونك، ولايقدرون ان يزوروا مصر او ان تكون لهم فيها منفعة ما، فقد وصلت الى الفرنسي حقاً ، واستطعت ان تتحدث اليه ، وان ترى نفسه كما هي ، دون ان يحول بينك وبينها غشاء ضعيف او كثيف . هذا الفرنسي صريح ، مسرف احياناً في الصراحة ، محب للغلو في كل شيء حين يتكلم لا حين يعمل ، وهو كلف بالتناقض ، واعلان الاحكام المضحكة الغريبة ، التي تفجؤك وتدهشك . ومن غريب الامر ان الامد بعيد جداً بين الفرنسي حين يتكلم ، والفرنسي حين يعمل. فهو في حياته العملية معتدل، وهو اقرب الى المحافظة منه الى التطرف حتى حين يكون من

المتطرفين في المذهب السياسي . ولكنه حين يتكلم اشد الناس تطرفاً ، واعظمهم إسرافاً في نبذ القديم، واحدهم سخطاً على حياته اليومية ، وعلى عصره الذي يعيش فيه . اذا سمعت الفرنسي يتحدث عن شؤونه السياسية فستراه ساخطاً اشد السخط على الحكومة والبرلمان ، مغضباً أشد الغضب ؛ لان شؤون الدولة تمشي على غير نظام ، ولان فرنسا تفقد مركزها الممتاز الذي كان لها بين امم العالم . هو ساخط على الجمهورية ، وهو غير راغب في عودة النظام الإمبراطوري او الملكي ، وهو كاره للاشتراكية ، مشفق من الشيوعية ، فاذا سألته عما يريد قال لك كلاماً كثيراً لا تفهم منه ما يريد ، ولكنك تفهم منه انه ساخط غير مطمئن . هو ساخط فيما يقول،ولكنه في حياته اليومية راض مطمئن ، يؤدي عمله على وجهه في تأفف متصل ، ويؤدي الضرائب في سخط على الحكومة والخزانة .

وسخطه السياسي ليس اعظم من سخطه الأدبي او الفني ، فلن ترى الفرنسي راضياً عن الحياة الادبية في عصره ، ولن تراه راضياً عن الحياة الفنية ، ولن تراه راضياً عن شيء ، ولكنه على ذلك كله يقرأ ويلتهم الكتب التهاماً ، ويزور معارض الفن ، ويشهد التمثيل ، ويسمع الموسيقى ، ويجد في هذا كله لذة ، ولكنه يجد مع ذلك وسيلة الى السخط والتأفف والاشمئزاز . هو قلق دائما ، طامح دائما الى مثل أعلى ، يجهله ولا يستطيع ان يحدده ، ولكنه يطلبه مع ذلك ويلح في طلبه ، يطلب دون ان يتخلص من حياته اليومية وحاله الحاضر إلا في مشقة وعسر شديد.

لا اعرف احداً يسخط على الحياة الفرنسية من جميع نواحيها كالفرنسيين . ولا أعرف احداً يحب الحياة الفرنسية من جميع نواحيها كالفرنسيين : هم ابغض الناس للحرب ، وهم اسرع الناس اليها حين يدعون . هم ابغض الناس للجمهورية ، وهم احرص الناس عليها حين تتعرض للخطر . شعب غريب حقاً لا يفهمه الاجنبي الا بعد طول الدرس والاختبار ، وبعد ان يعود نفسه ان الطبيعة الفرنسية الحقيقية تختفي امام طائفة كثيرة كثيفة من استار التناقض والاضطراب .

ما ابعد الامد بين هذا الفرنسي الذي تتحدث اليه في فرنسا ، فإذا هو في الوقت نفسه يسخر من كل شيء، ويحرص على كل شيء ، ويناقشك في كل شيء،ويلهيه اللفظ عن كل شيء ، حتى يفتن بصوته وعباراته ويتكلم ليسمع نفسه وهو يتكلم لا ليؤدي اليك شيئاً في نفسه يريد ان يؤديه ويذود عنه.وبين هذا الفرنسي الذي تراه في مصر يتحدث اليك في عناية وحرص ، قد وزن الفاظه وزناً وقدرها تقديراً وصنع له طائفة من الاراء والمعاني والخواطر قدر انها هي التي تعجبك وترضيك ، فهو يعرضها عليك في مهارة ودراية ومكر واسراف في المكر ، وهو في لفظه مقتصد معتدل لا يكاد يتكلم الا بمقدار لانه يخشى ان يرسل نفسه على سجيتها .

عسير عليك ان تحب الفرنسيين في مصر ، وعسير عليك ان تكره الفرنسيين في فرنسا . وقد سمعت من غير واحد من اصحابنا الذين يعرفون بلاد الانجليز ان ثقل الانجليزي في البلاد

الاجنبية لا يعدله الا ظرف الانجليز في بريطانيا العظمى .

ومن يدري لعل الامر كذلك بالقياس الى الاجانب جميعاً .

اما انا فلم اكن قد عرفت الفرنسيين حين زرت فرنسا لاول مرة ، فلما خالطتهم في بلادهم – وقد اتيحت لي هذه المخالطة كأحسن ما تتاح لأجنبي – احببتهم حباً لا حد له . ثم عرفتهم بعد ذلك في مصر فلم اكد اصدق ان هؤلاء الفرنسيين هم مثل اولئك الذين عرفتهم وراء البحر ، ولذلك تعودت الا اسمع للفرنسيين في مصر الا بنصف اذني فاذا كنت في بلادهم فانا اسمع لهم بنفسي كلها .

١٣

وفي باريس دور تدخلها فلا تكاد تخرج منها الا بشق النفس كأنها تمسكك وتحول بينك وبين الخروج ، وهي تمسكك بالفعل فأنت لا تكاد تخطو فيها خطوة حتى تقف ناظراً محدقاً ومتأملا مفكراً ، ثم تنتزع نفسك انتزاعاً من هذا المكان الذي وقفت فيه فاذا على القرب منه مكان آخر يقفك ويقيدك ، ويضطرك الى النظر والتحديق ، والتأمل والتفكير .

وكذلك انت مضطر الى ان تقضي اليوم كله او اكثره في هذه الدور ، تنتقل فيها من مكان الى مكان ، ولا تبرحه حتى تضطرك حاجتك او المساء الى الخروج .

وهذه الدور نوعان : احدهما يمثل امس القريب او البعيد ، والآخر يمثل اليوم وغداً وبعد غد . الاول يمثل امس وما كان

فيه من حوادث وفنون وحياة خصبة من جميع نواحيها وهي المتاحف ، والآخر يمثل اليوم وغداً وما فيهما من لذة وامل ورغبة في الترف وتهالك على النعيم وهي دور التجارة الكبرى .

هذان القصران المتقاربان اللذان يتسميان باسم واحد، واللذان يتسلطان على النفوس تسلطاً متشابهاً في القوة والبقاء ، والاستئثار بالعقل ، والاستهواء للب ، يحتكمان في الفرنسيين والغرباء كما يشاءان : احدهما متحف اللوفر ، والآخر متجر اللوفر .

وكلاهما مكتظ طوال النهار بالزائرين والزائرات من كل جنس ومن كل اقليم ، وكلاهما فتنة للزائرين والزائرات ، ولكن فتنة المتحف اهون على الجيوب من فتنة المتجر .

فقصاراك اذا زرت المتحف ان تفتن بما فيه من آيات الفن الفرنسي الاجنبي على اختلافها وتباينها وتفاوتها في مقدار الجمال ونوعه وطبيعته وقيمته ، ولكنك واثق انك لن تجد في هذا المتحف الا لذة بريئة خصبة فيها علم وفيها ارضاء للذوق والشعور.

اما المتجر ففي زيارته لذة قوية ، ولكنها خطرة شديدة الخطر ، ولا سيما اذا لم تزره وحدك بل زرته مع السيدات. ومهما يكن خطر متجر اللوفر وامثاله على الجيوب والماليات الرقيقة فاني لا اكره اذا زرت باريس ان ألم بها إلمامات طويلة أو قصيرة ، خفيفة أو ثقيلة ، فيها ربح وفيها خسارة ، وفيها لذة ومتاع على كل حال . بل اصبحت — مع الاسف أو مع الرضا — لا افهم المرور بباريس دون المرور باللوفر والبرنتان وجاليري لا فاييت ،

والوقوف عند بعض الاماكن فيها اتخير وادفع الى الشراء ، واستمع في شيء من الراحة واللذة لأحاديث البائعين والبائعات، وفنونهم الغريبة الحلوة في اغراء المشترين ، والعبث بعقولهم وأذواقهم وجيوبهم معاً .

١٤

للناس مذاهب مختلفة فيما يتبعون من الرحلة الى اوروبا او غير اوروبا من البلاد الاجنبية ، فهم جميعاً متفقون او كالمتفقين على انهم يدعون بلادهم رغبة في الراحة ، والتماساً للترفيه على النفس ، وتغييراً للبيئة ، وفراراً من الجو الحار الثقيل ، ولكنهم بعد هذا كله يختلفون في تصور الراحة وتغيير البيئة والفرار من الجو ؛ فمنهم من يرى الراحة في الايواء الى ساحل البحر او المحيط ، يقضي نهاره متجرداً او كالمتجرد ، مستلقياً او كالمستلقي على الرمل ، ينغمس في الماء ليخرج منه ، ويخرج منه لينغمس فيه ، وهو في هذه الاطوار المختلفة يستمتع بما يرى من اشخاص مجردين مثله ، ويأخذ بحظه من حرية الظرف والتفكير والدعابة والعبث ، حتى اذا كان الليل لم يستلق على الرمل ، ولم ينغمس في الماء ، وانما اندفع الى الكازينو ، وانغمس في هذه الامواج الملتطمة من الرجال والنساء ، حول موائد اللعب ، او في مسرح

الرقص ، او في المقصف او حول الموسيقى .

وهذان الطوران من اطوار الحياة النهارية والليلية على ساحل البحر غريبان مختلفان اشد الاختلاف ، ولا سيا في ما يمس الرجال ؛ فهم عراة او كالعراة بياض النهار ، يظهرون من اجسامهم ما لا متعة في النظر اليه الا ان يكون احدهم قد صيغ على صورة أبولون ، وهؤلاء الاشخاص قلة في الرجال. وتراهم في بعض المدن والسواحل يسرفون في هذا التجرد، كما تراهم في بعض المدن والسواحل يقتصدون ، لا يقفهم عند حد من ذلك الا لين البلديات وشدتها في ملاحظة المستحمين . فاذا كان الليل فقد سترت اجسامهم كلها ، ودخلوا في ملابسهم الليلية او السموكنج ، لا يظهرون من اشخاصهم الا اقل مقدار ممكن .

أما النساء فلهن منطق معقول : هن متجردات في النهار على الساحل ، ومتجردات في الليل اذا اقبلن الى الكازينو ، ولكنهن لا يظهرن من اجسامهن في الليل ما يظهرن في النهار ، انما يظهرن في النهار نصفاً ، وفي الليل نصفاً آخر : للنهار الاعجاز ، ولليل الصدور .

وعلى هذا النحو تستطيع ان تفهم هذه الصورة المضحكة التي نشرها « الجورنال » ذات يوم تمثل عاملا من عمال المحطات قد جلس الى نافذته يبيع تذاكر السفر ، واقبلت عليه امرأة قبيحة المنظر شوهاء تشتري تذكرة ، فهو مفتون بهذا الوجه القبيح المشوه لانه منذ اول الفصل لا يرى وجوها ، إنما يرى أعجازاً ... !

ومن الناس من يرى الراحة في الصعود الى جبل من الجبال ، يختلف ارتفاعه في الجو بمقدار ما يسمح له الطبيب ، وهناك يقضي نهاره متنقلا من مكان الى مكان ، صاعداً هابطاً ، أو مستريحاً في غابة أو حديقة ، او مندفعاً في الكازينو بياض اليوم وسواد الليل ، مستمتعاً بما في البلاد الجبلية من مناظر مختلفة ، واضواء متباينة ، الا ما تعرض عليه الحسان من اصناف الزينات وضروب الخلاعة ، فان كان من الذين يحبون السيارات ويكلفون بهذا الحس الغريب الذي يجده الناس في السرعة فنهاره في السيارة ، وليله في الكازينو ، بين الرقص والعزف واللعب ، ورأسه دائر ليلا ونهاراً ، حتى اذا انتصف الليل أو مضى ثلثاه آوى الى سريره فاستراح .

ومن الناس من يكتفي بمدينة من المدن ذات الحظ العظيم من الحضارة ، فيقضي نهاره فيها وليله كما كان يقضيها في مصر ، الا انه هنا يستمتع بحظ من الحرية لا يستمتع به عادة في مصر ، يصبح فيمضي الى القهوة ، وما يزال فيها حتى يدعوه الغداء ، ثم يمسي فيمضي الى القهوة ، وما يزال فيها حتى يدعوه العشاء ، ثم يفرغ من عشائه ويمضي الى حانة او ملعب ، ويقضي ليله أو شطرا غير قليل من ليله في لذة قلما تخلو من إثم ، وقلما تخلو من اسراف في النفقة ، وقلما تخلو من إساءة الى العقل والجسم والاعصاب عامة ، والكرامة الإنسانية في كثير من الاحيان .

ومنهم من يلتمس الراحة في مدن العيون والينابيع ، لأن

لأطباء قد فرضوا عليه ذلك ، او لأنه يجد في البيئة التي تشبه بيئة السواحل لذة تصرفه عن غير هذه المدن من مواضع الراحة ، فهو يستحم ويخالط المستحمين والمستحمات في غدوهم ورواحهم ، وفي نشاطهم وخمودهم وراحتهم ، وهو يرقص ويشهد الراقصين والراقصات ، ويلعب او يشهد اللاعبين واللاعبات ، وحظه من اللذة البريئة او الآثمة يختلف باختلاف مزاجه ومقدرته وثروته .

اما أنا فلست افهم الراحة على نحو من هذه الانحاء ، وقد وصفت لك فهمي لباريس وحياتي فيها . واذا تركت باريس فقلما افكر في سواحل البحر ، لأني أكره البحر واجد في جواره ألماً ومشقة لا احتملها الا ان اضطر الى ذلك اضطراراً . وقد اراد الله ان يلائم في ذلك بين مزاج زوجي وابني ومزاجي ، فنحن جميعاً نكره البحر ولا نطمئن اليه . ونحن نكره مدن الاستحمام ايضاً ، لان الاطباء لم يفرضوها علينا الى الآن ، ولأننا لا نكاد نذوق هذه اللذة التي يذوقها الناس حين يظهرون من اشخاصهم ما لا ينبغي ان يظهروا ، وحين يرون من غيرهم ما لا ينبغي ان يروا . فأحب ضروب الراحة الينا هو الأيواء الى جبل معتدل الارتفاع ، نتخير فيه فندقاً مريحاً معتدلا رخيصاً كفندقنا في باريس ، فنأوي اليه ، لا نبتغي الا طعاماً ملائماً ، وغابة قريبة نقضي فيها النهار او اكثره ، وفراشاً وثيراً نقضي فيه الليل كله . ولسنا من عشاق السيارات ، وانما حب معتدل

للحركة والمشي الى ان نصل الى مرتفع شاهق ، فاذا نفوسنا تنازعنا الى ان نبلغ قمته . فنتكلف في ذلك من المشقة مانتكلف ، ثم نعود متعبين مكدودين ، قد اعتزمنا ان نرتاح من الحركة يوماً او يومين . على ان احد ابني قد كلفنا في هذه السنة مشقة لم نتعود مثلها ، فهو على انه لم يتجاوز السابعة مشغوف بالصعود والهبوط ؛ مفتون بالعيون والغدران والجداول والمياه المنحدرة ، يلتمسها حيثما كانت ، وحيثما وجدت . وقد اخذ يقرأ ، فلا يصل الى مدينة او قرية حتى يلتمس الدليل وينظر فيه ؛ ويحفظ اسماء الجداول والعيون والينابيع ، وما يزال يلح علينا بعد ذلك في التماس ما حفظ حتى نضطر الى الاستجابة له . واذا نحن في الطريق نلتمس جدولاً او عيناً او منحدراً من الماء قد حفظه هذا الطفل ؛ وابى الا ان يراه ، فنتعب ويتعب ، ولكنا لا نكاد نبلغ الغاية حتى نرى في فرحه وابتهاجه ونشاطه وانغماسه في هذه الطبيعة ما يرد الينا ما فقدنا من نشاط . ويذهب عنا ما وجدنا من ألم ومشقة .

وانا اشهد اني اجد لذة قوية في هذا النحو من الراحة في الجبل في اول الامر ، ولكني لا اكاد اقضي في هذه الحياة اياماً حتى احس مللاً لاحد له ، وسأماً لا سبيل الى احتماله ، الا ان يعينني عليه كتاب أقرأ فيه ، او فصل امليه . ولو اني خيرت لماقضيت في مثل هذه المواطن الا الايام القصار ، ولعدت الى باريس أستأنف هذه الحياة التي وصفتها ، والتي لا ينقضي حبي لها واعجابي بها . وليس في ذلك شيء من الغرابة ؛ فأنا لا املك الشرط الاساسي

الذي يحبب الى الناس الجبل والبحر وما فيهما من لذة بريئة .
وكل ما اجده من ذلك إنما هي هذه الراحة الطبيعية التي اتلقاها مضطراً من الهواء واختلاف الأجواء. فاما هذه اللذة الفنية فيجدها من يبصر الطبيعة في اشكالها المختلفة ، ومناظرها المتباينـــة ، والوانها البديعة ، التي تتباين بتباين الاضواء ، وموقعها عـــلى الأرض أول النهار وآخره وإبانه ، ثم هذه المناظر البديعة التي تكون في الجبال حين تتفاوت قممها ارتفاعاً وانخفاضاً ، وقـد غطي بعضها بالجليد ، وتوج بعضها بالغابات ، ووقعت عليها أشكال النجوم والكواكب ، وارتفعت من بينها أضواء المـدن والقرى . كل هذه المناظر لا حظ لي منها ، لا استطيع ان أراها ولا ان اذوقها ، وإنما يقص منها على الشيء إثر الشيء فأحقق بعضه ، وأعجز عن تحقيق بعضه الآخـــر . واذا كنت راضي النفس مطمئناً فقد أسمع ذلك مغتبطاً ببعضه ، غير مكترث لبعضه الآخر . فأما ان كنت مضطرب النفس سيء الخلق — وكثيراً ما يعرض لي هذا — فلعلي لا اسمع ما اسمع من الوصف دون ان أشعر بألم يريد ان يكون شديداً ، لولا اني اخذت نفسي منذ سنين طوال بهذا البيت البدوي القديم :

لا بد مما ليس منه بد ....

فانا لا آسى على ما فات ، ولا اكلف بطلب ما لا سبيل اليه؛
فأنا إذن من عشاق المدن ومن عشاق باريس بنوع خاص .
فيها اجد هذه اللذة التي قسم لي ان آخذ منها بأكبر حظ ممكن ،

وهي لذة العقل والشعور . فليس غريبـــاً الا اترك باريس الا كارهاً ، وكيف أتركها راضياً ، وانا اعلم اني مـــا دمت في باريس فأنا أستطيع ان ارضي من عقـــلي وقلبي وشعوري أية ناحية شئت .

١٥

ونطوف بعد ذلك عشرة ايام في الألزاس ، متنقلين بين مدنها وقراها ، متجولين في وهادها ورباها ، نزور ما فيها من آثار الماضي البعيد والقريب ، ونشهد ما فيها من مظاهر الحياة الجديدة المضطربة .

وفي الالزاس متاع للعيون ، كما ان في الالزاس متاعاً للعقول ، ففيها كثير من آثار القرون الوسطى لا تزال قائمة ماثلة ، تعطيك من فن هذا العصر صوراً مختلفة ، ولكن الالزاس في هذه الايام تعني من يزورها عناية خاصة ؛ لمكانها بين الفرنسيين والالمانيين :

والمسألة التي تفرض عليك فرضاً حين تتصل بالفرنسيين ، وتنغمس في حياتهم القومية ، هي ان تعرف احقّ ان الالزاس اقليم فرنسي وان اهله يحبون فرنسا كما يحبها الفرنسيون ، ام ذلك لون من ألوان الجهاد السياسي بين هذين الشعبين المتخاصمين

منذ اقدم العصور التاريخية ؟

اما اذا قرأت الصحف الفرنسية فالالزاس قطعة من فرنسا اغتصبها العدو ثم استردتها فرنسا المنتصرة منذ سنين، والفرنسيون يختلفون فيما بينهم حين يفكرون في الصلة بين فرنسا وبين هذه القطعة التي ردت اليها ، فمنهم من يريد ان تمحى الفروق كلها بين الالزاس وبقيه الاقاليم الفرنسية ، فيكون التشريع واحداً والنظام واحداً ، وتخضع الالزاس لكل ما تخضع له الاقاليم الفرنسية ، من نظام في السياسة والادارة والمالية والدين والتعليم . هؤلاء هم المتطرفون . ومنهم المعتدلون الذين يريدون هذا كله، ولكن شيئاً فشيئاً ، وقليلا قليلا ؛ لانهم يقدرون اثر الاحتلال الالماني في الالزاس ، ويعلمون ان انتقال الالزاس من النظام الالماني الى النظام الفرنسي الخالص فجأة — لا يمكن ان يتفق دون ان يستلزم اضطراباً وفساداً بعيدي المدى .

والالزاسيون انفسهم — فيما يظهر — ليسوا اقل اختلافاً من الفرنسيين ؛ فمنهم المسرفون في بغض النظام الفرنسي ، ومنهم المسرفون في حب هذا النظام . والناس جميعاً يعلمون ما تلاقيه فرنسا من الصعوبات المعقدة في الملاءمة بين الالزاس وبين النظام الفرنسي الخالص .

ولكن الاجنبي الذي يزور الالزاس بعد ان يكون قد زار فرنسا لا يستطيع ان يتخلص من اثر جديد تتركه هذه الزيارة في نفسه ؛ فهو لا يسمع الفرنسية او لا يكاد يسمعها في الالزاس

وانما يسمع الالمانية يتحدثها الرجال والنساء في اعمالهم ومرافقهم كما يتحدثها الاطفال في لعبهم . وهو لا يسمع الفرنسية الا حين يتكلم الالزاسي الى الفرنسي أو الى الاجنبي الذي لا يتكلم الالمانية . فإذا تكلم الالزاسي اللغة الفرنسية فهي فرنسية خاطئة محطمة مشوهة كفرنسية الالمان .

والأجنبي اذا اراد ان يقرأ الصحف الالزاسية وجد اكثرها المانياً ، فاذا شهد الصلاة في كنائس الالزاسيين فاللغة التي تستعمل مع اللاتينية هي الالمانية . ونظام الحياة في الالزاس اقرب الى النظام الألماني منه الى النظام الفرنسي . طعام الالزاسيين الماني ، وشرابهم الماني ، فهم يؤثرون الجعة على النبيذ ، كما انهم يؤثرون الشوكروت Choucroute على غيره من الوان الطعام المألوفة في فرنسا .

أهم فرنسيون كما يدعي الفرنسيون ؟ أهم ألمانيون كما يدعي الالمانيون ؟ ما ارى انهم من اولئك ولا من هؤلاء . وانما ارى انهم ألزاسيون ، ولو استطاعوا لطلبوا لانفسهم ما يطلبه كثير من الشعوب الاوروبية الصغيرة من الحياة المستقلة بين هذين الشعبين العظيمين المختصمين . وهم الى ان يتاح لهم طلب الاستقلال التام يجاهدون الآن في سبيل الاستقلال الداخلي ، ويتكلفون في ذلك مشقة وهولاً ليس اقل منهما ما تتكلفه فرنسا من المشقة والعناء .

ومهما يكن من امر الألزاسيين والألزاس من ايثار فرنسا أو

المانيا او ايثار الحياة المستقلة فان الاقامة في الالزاس للذيذة حلوة، فيها دعة وراحة ، واكل كثير ، وشراب غزير ، ورياضات ممتعة . ومها انس فلن انسى كلف ابني الصغير بزيارة العمارات الألزاسية والتصعيد في بروجها ، والعناية بوصفها وتعديدها ، ثم برسمها وتصويرها . واظنه سيبلغ ما يشاء الله ان يبلغ من السن قبل ان ينسى كتدرائية ستراسبورج ، التي اصبحت عنده الان مقياسا للكاتدرائيات جميعاً . بفضل هذه الكاتدرائية ظهر عند هذا الطفل في السابعة من عمره ميل غريب قوي الى زيارة الآثار زيارة ان لم تكن فنية فهي تشبه الفنية . ونحن الآن لا ننزل بلداً ولانصل الى قرية حتى يلحّ هـذا الطفل في زيارة بيعتها او كاتدرائيتها ، حتى اذا أتم هذه الزيارة اخـذ يقيس البيعة او الكاتدرائية بكاتدرائية ستراسبورج طولاً وعرضاً وصعوداً في الجو وجمالاً فنياً .

ومهما تكن الخواطر التي خطرت لنا جميعاً اثناء رحلتنا الطويلة هذه ، ومهما تكن العواطف التي اثارتها في نفوسنا هذه الرحلة ، ومهما يكن ما لقينا فيها من خير وشر ، ومن رضاً وسخـط — فلن يعدل هذا كله ما حفظته نفس هذا الطفل الصغير من هذه الرحلة ؛ فقد كلف فيها بثلاثـة اشياء ، لن ينقضي يوم حتى يحدثك فيها ، ويطيل ويثقل : العيون والينابيع ، يقيس بعضها الى بعض ويوازن بعضها ببعض ، غزارة وارتفاعاً وانحدار ماء ، والبيع والعمارات ، يقيسها كلها الى كاتدرائية ستراسبورج ، ثم

قطر السكك الحديدية ، يحصيها ويحصي ما تقطع من الآمـاد والمسافات ، ويحصي ما تقف عنده ولا تقف مـن المحطات : يحفظ اسماءها ان استطاع ، فان اعياه ذلك او فاته اخترع لهـا الاسماء اختراعاً . ولعله يحفظ الاسم على غير وجهه ، ثم يعيـده عليك في شكل بديع مضحك . وهو لا يكتفي بحفظ القطارات وآمادها ومحطاتها ولكنه يقلدها ، فهو قطار منذ يفيق من نومه الى ان ينغمس في النوم اول الليل ؛ يقلـد القطار في حركته وصوته ؛ يقف ويندفع ؛ ثم يقف ويعلن المحطات التي يقف عندها ، والتي يقصد اليها متى سافر. وسواء اردنا ام لم نرد فنحن مسافرون سفراً متصلا ، لانه قطار ونحن في القطار ، فهو يسير ويقف بنا. وانه ليدهش اشد الدهش حين ننسى اننا مسافرون ، وانه قد انتهى بنا الى « جنيف » او الى محطة « المشمش الجديد » او الى محطة « للروز » والى ما يلهمه خياله من البلاد والمحطات.

كانت لذيذة مثيرة للعواطف مرضية للنفس هذه الرحلة بين هذين الطفلين ، يعيش احدهما في الخيال ، وتتفتح نفس اخته للحياة ، فاذا هي ترى الاشياء على وجهها او تريد ان تراهـا كذلك ؛ واذا هي تنفق جهداً لا حد له لتلائم بين الحيـاة كما تراها الآن وبين ما حفظت نفسها الناشئة من خواطر الطفولة وصورها واحاديثها .

يستطيع السفر ان يكون شاقاً متعباً ، وتستطيع الحياة ان تكون فيه مرة ممضة ، وتستطيع الهموم ان تملأ النفس وتنغص

عليها ما يعترضها من اللذات ، ويستطيع العمل ان يكون مجهداً مضنياً ، فلن يثبت هذا كله امام هاتين الابتسامتين الحلوتين : ابتسامة الطفل الذي لا يزال يحلم ، وابتسامة الصبية التي اخذت تفيـق .

١٦

وفي الالزاس اذا زرتها مسافات لا بد ان تقطع ومعاهـــد لا مندوحة عن ان تزار ، وإلا فلم تزر الالزاس ولم تستمتع بما فيها من جمال مادي ومعنوي . لا بد من ان تأخذ هذه السيارات الضخام فتذهب الى الهوفالد Howald وتتغدى فيه ثم تعود الى السيارة وتذهب الى سانت اوديل Sainte Adille وتزور الدير ثم تعود الى ستراسبورج من طريق آخر ، وانت في ذهابـك وإيابك تمر بقرى وترى مناظر وتزور كنائس ، ولكن الشيء الوحيد الذي اثر في نفسي من هذه الاشياء كلها انما هو هذا الدير الذي وصلنا اليه نحو الساعة الثالثة بعد الظهر .

دير قائم على قمة شاهقة في الجو ، لا تكاد تتصل بالسهل الا من هذه الطريق التي تقطعها بك السيارة ، فأما من جميع نواحيها الاخرى فهي قائمة شاهقة مشرفة على السهل ، منفصلـــة عنه انفصالا تاماً بحيث تعجب كيف اختير هذا المكان لاقامة هـذا

الدير ، ثم لا تلبث ان تشعر بهذه الوحدة التي يستشعرها المقيمات في هذا الدير فتملأ نفوسهن رهبةوجلالاً ، ثم تمكنهن من الخلو الى ضمائرهن وقمعها ومحاسبتها ، وما هي الا ان يصلن من هذه الوحدة امام الضمير الى شيء من الايمان فيه تصوف وزهد ، وعكوف على النفوس ، وطموح الى الكمال الديني الاعلى .

والشعب الالزاسي من اشد الشعوب الفرنسية تديناً وايماناً ، واحرصها على العادات والسنن الموروثة ، وكان انفصاله من فرنسا سبباً في بقاء هذه العادات والسنن قوية شديدة الاثر في نفسه ، حتى اذا عادت الالزاس الى فرنسا لم تخضع ولم تفكر فرنسا في اخضاعها للتشريع الديني الفرنسي ، ولا للفصل بين الكنيسة والدولة ، وما ينشأ عنه من الآثار في حياة الشعب والقسيسين والرهبان وفي التعليم ايضاً .

وكان اشد الشعوب الفرنسية تديناً وايماناً قبل الحرب ، وابعدهم في المحافظة ، واحرصهم عليها اهل بريطانيا . فلما كانت الحرب وردت الالزاس اصبح لرجال الكنيسة معقلان منيعان : بريطانيا والالزاس .

واذكر اني شهدت في بريطانيا منذ سنين حفلا دينياً اجتمع له الشعب رجالاً ونساء وشباناً واطفالا ، واقبلوا الى كنيستهم بعد ان طافوا المدينة يتغنون بأغاني دينية ووطنية محلية . فكان لهذا المشهد في نفسي اثر قوي تركه هذا الغناء ، تمتزج فيه الاصوات الحلوة ، اصوات النساء والاطفال بهذه الاصوات الغلاظ الشداد ، اصوات الرجال والشبان ، وهذه المعاني الساذجة البسيطة التي

تقدس الله والوطن الخاص في غير تكلف ولا اسراف .

ثم شهدت في الالزاس حين وصلت الى هذا الدير حفلاً كهذا الحفل البريطاني ؛ فقد اجتمع فيه الحجيج من اهل هذا الاقليم رجالا ونساء شباناً واطفالا ، واقبلوا الى ديرهم يتغنون باللاتينية مرة وبالالمانية مرة اخرى وبالفرنسية قليلا جداً ، يقدسون ربهم ووليتهم ووطنهم الصغير . حتى اذا طافوا بالدير وانتهوا الى الكنيسة وقفوا خاشعين وقام القسيس باسمهم يتوسل الى القديسة في لغة المانية قوية عذبة ، فتوسل واطال التوسل . وما كنت تشك وانت تراه وتسمعه وترى خشوع الشعب من حوله في ان نفوس هذا الشعب كله متصلة به ، تنطق بلسانه وتخفق مع قلبه حين يخفق رغبة ورهبة ، حتى اذا فرغ من صلاته الالمانية استأنفها بالفرنسية لا لأن القديسة في حاجة الى ان تترجم لها الصلاة ، ولكن لان الشعب نفسه في حاجة الى ان يفهم الصلاة التي يقوم بها عنه القسيس ليصليها معه ، وليكون شعوره ملائماً لشعور القسيس . وكثرة الالزاسيين يفهمون الالمانية او قل كل الالزاسيين ، ولكن بينهم الآن فرنسيين هاجروا الى الالزاس ، وبينهم اولئك الالزاسيون الذين آثروا فرنسا على المانيا ، فتركوا وطنهم بعد الهزيمة ثم عادوا اليه او عاد اليه ابناؤهم بعد الانتصار . وللسياسة الجديدة حكمها ؛ ففرنسا مضطرة الى ان تقبل الالمانية لغة للصلاة ، ولكنها مضطرة ايضاً الى ان تفرض الفرنسية لغة للصلاة . وللدين الآن في الالزاس لغتان حديثتان الى اللغة اللاتينية المقدسة ، وللتعليم كذلك لغتان . وسيظل الصراع قوياً بين الفرنسية والالمانية حتى

يستطيع الزمن والسياسة ان ينصرا احداهما على الاخرى .

الفرق عظيم جداً بين هذين الحفلين اللذين شهدتهما في بريطانيا والالزاس يمثلان نفس شعبين مؤمنين حقاً ، وبين هذه الحفلات التي تستطيع ان تشهدها في لورد Lourdes اذا اقبل الصيف من كل عام ؛ فحفلات لورد لا تمثل ايماناً ولا اخلاصاً في حب الله ، وانما هي الشعوذة من ناحية ، والنفاق من ناحية اخرى ، وضعف المرضى وتهالكهم على طلب الشفاء من ناحية ثانية . الدين في لورد تجارة رابحة . ولكنه في بريطانيا والالزاس مرآة صادقة لقلوب مؤمنة خاشعة ، تخفق بذكر الله والقديسين والتوسل اليهم .

١٧

ولم يكن التأثر الذي ملك عليّ نفسي حين تركت الالزاس وقاربت الحدود الفرنسية الالمانية القديمة وشهدنا الخنـادق التي كان يكمن فيها الفرنسيون والالمان يضمر بعضهم لبعض فيها الموت وضروب الاهـلاك ، ويتحصن بعضهم من بعض فيها بكل صنوف الوقاية والوانها — بأقل من ذلك التأثر الذي وجدته أمام دير سانت أوديل .

في الدير شعب خاشع امام الله راغب اليه ، يتـوسل اليه بالقديسين والاولياء ، يلتمس منه الامن والسعة والعافية والرخاء والتثبيت . وحول هذه الخنادق العميقة المتقاربة وما يمتد بينهامن الاسلاك الشائكة فضاء واسع ، فيه صمت عميق مهيب لا يقطعه الا حفيف الاغصان والاوراق حين يهزها النسيم الهادىء ، والا تصويت الطير من حين الى حين ... وانت تتمثل المأساة المنكرة التي كانت في هذا المكان طوال سنين الحرب ، والتي سفكت

فيها دماء وأزهقت فيها نفوس ، ولقي فيها الإنسان من الإنسان ضروباً من العـذاب لا سبيل الى ان توصف ولا الى ان يتمثلها الناس وهم آمنون .

نعم ، وانت تسمع في هذا المكان انين الجرحى وحشرجة صدور الموتى ، وتسمع الى هذا الجند يتكلفون السلوة والعزاء ، يشجع بعضهم بعضاً ، ويواسي بعضهم بعضاً ويضحكون من تعسهم وشقائهم . انت تسمع هـذا كله فيخفق قلبك وتتقطع نفسك اسى ، ولكنك لا تستطيع ان تمد الطرف من هذه الناحية او تلك حتى ترى هنا قبور الفرنسيين وهناك قبور الألمانيين .:. ومن عسى ان يكون في هذه القبور ؟ واي امـل طوته هذه القبور ؟ وكم عسى ان تكون عـدد القلوب التي صدعتها هذه القبور ؟ وكم عسى ان يكون النفوس التي اتصلت بهذه الناحية الصغيرة من انحاء هذا الميدان المنكر ميـدان الحرب ؟ نفوس الامهات والآباء ، نفوس البنات والابنـاء ، نفوس الازواج والصديقات . وانظر فليس مصدر هذا الالم الذي يملك نفسك هذه القبور المبعثرة وما تشتمل عليه من اشلاء ليس الى تحديدها ولا الى تعيينها من سبيل . ليس مصدر هذا الالم مـا ترى من قبور وتسمع فيها وحولها من انين وحشرجة واستغاثة ، ليس هذا كله مصدر هذا الالم فحسب ، وانما الطبيعة نفسها تبعث في نفسك ألماً الى الم ، وتغشى هـذا كله بغشاء منكر مخيف :

انظر الى هذه الاشجار الملتوية والجذوع المحترقة . انظر الى ما حولك كله وتمثله قبل الحرب فقد كان نضراً ، وكان بديعاً ،

وكانت فيه للناس لذة وبهجة ، وكانت فيه للنفوس راحة وانس ، فلما عدا الناس على الناس وقتل بعضهم بعضاً لقيت الطبيعة نفسها شر هذا العدوان ، فحالت نضرتها وذهبت بهجتها ، واستحالت هذه الجنة الى جهنم . وقد عاد السلم بين الناس الآن ، واتصلت بينهم الالفة والمودة ، ونسي بعضهم آثام بعض . ولكن هذه القبور ما زالت قائمة ، وهذه الخنادق ما زالت عميقة ، وهذه الاسلاك الشائكة ما زالت ممتدة ... وهذه الاشجار مازالت كما تراها . منها الملتوي ، ومنها الملقى ، ومنها القائم لم يبق منه الا جذعه . وما احسب ان هذا كله يعين على ان يستقر السلم بين الالمانيين والفرنسيين .

نعم كانت ساعة رهيبة مؤلمة هذه التي وقفناها عند هذا المشهد ، فلم تستطع عيون ان تحبس دمعها ، ولم تستطع قلوب ان تستقر في اماكنها ، ولم تستطع ألسنة ان تمسك عن لعن الحرب وعشاقها ..

ثم نمضي فاذا الحياة على قرب من هذا المشهد قد اخذت تستأنف نشاطها وقوتها ، فهذه اشجار الغابات تستبق في الجو كأنها تريد ان تبلغ السماء ، وهذه الاطيار تترجح وتترنح على الاغصان ، قد اسكرها النسيم العذب الذي يحمل اليها ما في هذه الطبيعة الواسعة المطلقة من ارج وضوء وخصب ونعيم ، وهذه الاعشاب تكسو الارض بألوان مختلفة من الزينة ، وتنجم بينها ازهار ضئيلة بديعة الاشكال والالوان ، وهذه الإجراس تسمعها من بعيد قد ملأت الفضاء واخذته على سمعك ، وهي اجراس

القطعان ترتع مرحة فيما يكسو هذه الارض من عشب ، وهذا النسيم الخفيف الفاتر يداعب وجهك ويحمل اليك الدعة والهدوء، ويحبب اليك الحياة والحركة. ومع ذلك فكم شهدت هذه الطبيعة من هول ، وماذا عسى ان تشهد غداً او بعد غد من الهول .

١٨

ثم نصل الى حيث كنا نريد ان نصل من هذه المدينة الهادئة الواسعة مدينة جيرار مير Gerardmer المستقرة في جبال الفوج Vosges على بحيرة صغيرة بديعة هادئة ، فاذا جو كأحسن ما عرفت من الاجواء ، واذا هدوء لم اشهده قط ،واذا مقام ملائم للراحة حقاً ، وملائم للعمل حقاً ، اولا هذه الجبال القريبة التي تدعوك وتكرهك على ان تدع الراحة وتدع العمل ، وتمضي فيها صاعداً هابطاً ، واقفاً من حين الى حين تنظر وتسمع ، وتستنشق هذا النسيم الخفيف النقي .

ولقد طفت في هذه الانحاء غير قليل ،ولكني اشهد ماخرجت الا كارهاً وبعد خصومات عنيفة كانت بين زوجي وبيني . اريد ان اخلو الى كتابي ،وتريد ان انشط و اتحرك وآخذ من الترويض بحظ ، واشهد ما خرجت كارهاً الا عدت راضياً مبتهجاً شديد الحزن ؛ لان ما لدي من العمل لا يسمح لي باستئناف مثل هذه الرياضات التي كنت اجد فيها لذة وراحة وجمالا لا تشبهها لذة

ولا راحة ولا جمال .

ولست انسى يوماً خرجنا فيه بعد الظهر الى مجتمع من الماء، فأقمنا عليه حيناً ثم مضينا نتبع الغدير في غابة كثيفة لا تستوي فيها الطريق ولا تعتدل ، ولا تخترقها اشعة الشمس الا على مشقة وجهد ، قد فرشت ارضها ببساط كثيف من العشب فاخذنا نتبع شاطىء الغدير في هدوء ودعة. وكنت منصرفاً عمن كان معي وعما كان من حولي الى هذا الغدير اسمع خريره وابتهج به، وماهي الا دقائق حتى انسيت كل شيء غيره، وحتى اقتنعت بأني لا اسمع خرير الماء، وانما اسمع نجوى المحبين. لا اقصد الى خيال ولا الى شعر، وانما اذكر ما احسست وما وجدت كما احسسته وكما وجدته. نعم كنت مقتنعاً بأني اسمع في هذا الماء المنحدر حديث المحبين، وكان هذا الحديث مختلفاً باختلاف انحدار الماء قوة وضعفاً: هنا ينحدر الماء في قوة وينزلق على جماعة من الصخور قائمة، فتسمع لانحداره اصواتاً مختلفة مرتفعة في اعتدال، وما هي الا ان تتمثل الحبيبين في ثورة ولوعة واضطراب وعتب وخصام. ثم تمضي فاذا مجرى الغدير قد لان واعتدل ، واذا الماء يمشي عليه هيناً ليناً ، واذا خريره هادىء رفيق ، واذا انت تتمثل هؤلاء المحبين وقد هدأت ثورتهم، وبردت لوعتهم، وانصرفوا عن الخصومة والعتاب الى هذا النحو من الرضا، المضطرب بين السخط والعفو، والذي تدنو فيه النفس من النفس دون ان تجرؤ النفس على ان تتصل بالنفس، والذي تسمع فيه الفاظ تمازج حلاوتها المرارة، وتتخلل لينها الشدة .

ثم تمضي واذا مجرى الغدير قد استقام او كاد ، وخلا من الصخور والاحجار الا هذه الحصى الصغار الدقاق ، واذا ماء الغدير قد رقّ وقل وصفا ، واذا هو يمشي مشية خفيفة بطيئة شديدة البطء ، واذا انت لا تسمع من المحبين خصومة ولا عتاباً ، بل لا تسمع منهم لفظاً ولا كلاما ، وانما هي قُبُلٌ هادئة حلوة ، قد امتزجت فيها النفوس والقلوب ، ودنا المحبون من الفناء . ثم استقام طريق الغدير استقامة تامة ، وجرى ماؤه على ارض رخوة سهلة ، فلست تسمع شيئاً مهما تحاول . فقد هدأ كل شيء ، واستقر كل شيء في نصابه ، واخذت نفسي تفيـق وتتخلص قليلا قليلا من هذا الحلم السخيف . واذا انا اسمع ابنيّ من حولي يختصمان : اي اطوار الغدير خير ؟ احـين يضطرب ويهدر ؟ أم حين يهدأ ويستقر ؟

واذكر لزوجي ما وجدت من لذة وانس بهذا الغدير فتنتصر في غضب وسخرية قائلة : وكم تستطيع ان تجـد من لذة وانس لو ارحت نفسك وارحتنا من « الضمائر » و « فلسفة ليبنتز » ! .. ولكنك تعلمين يا صاحبتي ان ليس الى هذا من سبيل .

١٩

ايتها النفس أجملي جزعاً ان الذي تحذرين قد وقعا

وما كنت احذر الموت على ثروت ، وما كنت افكر في ان بينه وبين الموت سبباً ، وانما كنت كغيري من الناس اقدر ان هذه الحياة القوية التي تنبعث منها حيـــاة قوية الى امة بأسرها سيمتد امامها الدهر ، وستصل بها الأيام حتى تنتهي من غايتها الى ما كانت تريد .

وكذلك نحن تعظنا الايام فلا نتعظ ، وتعلمنا الحوادث فلا نتعلم ، وينبئنا كل شيء بأن حياتنا غرور ، وآمالنـــا عبث ، وامانينا لعب ، فنأبى الا ان نؤمن لانفسنا بطول المدة وبعد الامد وقوة الامل وصدق الرجاء .

نؤمن لانفسنا ولاصدقائنا بهذا كله ، فاذا فاجأتنـا الكارثة ودهمنا الخطب وجمنا ، واخذنا الذهول ، وانقطع منـــا كل سبب ، فلم ندر ماذا نصنع ولا كيف نقول .

وكذلك كنت حين وقع علي هذا النبأ في طرف من اطراف

فرنسا ، وقد تهيأت للعمل شديد النشاط ،مجتمع القـــوى، فما هي الا ان اسمع ثروت ولفظ الموت حتى تنقطع الصلة بيني وبين من حولي وما حولي،وحتى يأخذني شيء كالاغماء العقلي، لا افكر ، ولا اعي ، ولا اشعر ، وانما هما لفظان يترددان في نفسي ترددآ متصلا : لفظ ثروت ، ولفظ الموت .

ولقد تركته في مصر كأحسن ماعرفته قوة ونشاطاً، وامتلاءً بالحياة وابتسامتها ،واملاً فيها ، وازدراء لاحداثها وكوارثها :

ولقد كنت اقدرأن اراه في مصر بعد الصيف كما تركته قبل الصيف ، فما عرفته قط الا كذلك ممتلئاً بالحياة ، مبتسما لهـــا ، شديد الأمل في غد ، قوي الازدراء لآلام امس .

وهذه الصحف تنقل إلي الآن انه مات في باريس .

واذن فلن ألقاه ولن أراه ولن اسمع له ولن اتحدث اليه ولن اقصد الى بيته اذا انحدرت الشمس في المساء او ارتفعت الشمس في الضحى ،ولن اجلس اليه ولن اقضي معه هذه الساعات الحلوة التي كانت ترفه علي وتحبب الي الحياة من حين الى حين .

انا غارق في هذه الحسرة ، والناس من حولي يقرءون هذا النبأ ويرددون قراءته . يكذبونه مرة ، ويصدقونه مرة اخرى ، ويلتمسون العلل والاسباب لتكذيبه وتصديقه ،ويرون لو استطاعوا ان اشترك معهم في هذا التكذيب والتصديق ، وفي هذا النقـــد والتحليل ، ولكن ما انا وهذا اللغو ؟ لقد وصل الى نفسي اسم ثروت ولفظ الموت . اوليس هذا يكفي لان اعود الى رشدي واخلص من غرور هذه الحياة ، واتبين مرة اخرى انما الحياة

الدنيا لعب ولهو وزينة لا غناء فيها ، ولا ثقة بها ، ولا معتمد عليها .

لقد تبينت ذلك ولم اتجاوز الصبا ،ولقد تبينت ذلك مرة ومرة ومرة ، وكنت كلما تبينته شديد الاستسلام له ، شديد الزهد في الحياة والنفور منها . امضي في ذلك اسابيع ثم اشهراً ثم تعمل الحياة عملها ، ويستأنف الغرور بالدهر وما فيه ، بسط سلطانه على نفسي ، فأفكر في الحياة العاملة ، ثم ابتسم لها ثم اندفع اليها ، وما ازال حتى تفاجأني كارثة اخرى ، فأتبين الغرور وازهد في العيش .

وعلى هذا النحو اراد الله ان تكون حياتنا جميعاً صراعاً بين العبرة والفتنة ، واراد الله ان نكون نحن موضوع هذا الصراع .

هذا اسم ثروت يتردد في نفسي ، ويتردد معه لفظ الموت ، وتعجز نفسي عن ان تلائم بين هذين اللفظين ، وعن ان تحقق هذه الجملة التي تنبئها بأن ثروت قد مات .

ومهما انكر ومهما اعجز عن الملاءمة والتحقيق ، ومهما اتردد بين الشك واليقين ؛ ومهما اضطرب بين التصديق والتكذيب ، فهذان اللفظان يترددان في نفسي تردداً متصلا ، يقطعها تقطيعاً ويفرقها تفريقاً . وهذه الساعات تمضي بعضها إثر بعض ،وهذه صحف المساء قد جاءت بعد صحف الصباح تصدق الخبر وتثبته ، وترثي ثروت وتؤبنه ، فليس من شك اذاً في ان القضاء قد لاءم بين ثروت وبين الموت ، وحقق ما لا تستطيع نفسي ان تصدقه او تحققه .

وتضيق بي نفسي ، وتضيق بي غرفة الفندق الذي انا فيه ، واخرج هائماً لا ادري الى اين اذهب ، ولا اعرف ماذا اريد ، وانا امشي على ساحل البحر لا اكاد اسمع اصطخاب امواجه ، ولا اكاد احس هذه الريح التي تعصف من حولي ، لانني مغرق فيما انا فيه من التفكير في ثروت وفي الموت ، ومن تعويد نفسي ان تواجه الحقيقة وتثبت لها ، وتعرف ان ثروت قد مات .

وليس من اليسير مواجهة هذه الحقائق اذا كان لهذا الرجل في نفسك مكانة الشقيق الوفي ، الذي اتصلت اسبابك باسبابه ، وبلوته في الخير والشر ، وانست اليه حتى اصبح الانس اليـــه جزءاً من حياتك .

نعم ليس هذا يسيراً ، وانما تقف امامه موقف من يشهد الجرّاح يبتر عضواً من اعضائه دون ان تستطيع له وقفاً ، او تجد سبيلا الى اتقاء الالم والفرار منه .

لله قلوب الاصدقاء ونفوسهم حين يفجعها الموت في الاصدقاء ! هي ازهار نضرة غضة تستقبل الحياة والضوء في جمال وبهجة : ولكن هذه اليد القاسية يد القضاء تمتد اليها من حين الى حين في غير رفق ولا لين ، فتنتزع منها ورقة ثم ورقة :.. وهي كلما انتزعت منها بعض اوراقها انكمشت وتضاءلت ، وسرى فيها الذبول والفناء ، حيث كان يسري فيها الرواء والماء ، وما تزال يد القدر تتبعها فتنزع اوراقها ، وما يزال الذبول يتمشى فيها حتى تجف وتيبس ، وتصبح هشيما مستعداً لان تذروه الريح متى عصفت به ، وهي عاصفة به من غير شك حين تدنو هذه الساعة

التي لا يفلت منها حي ، ولا ينجو منها انسان .

نعم لله قلوب الأصدقاء ونفوسهم ! فهي على هذا كله قبور حية . وهل تظن انا نفقد اصدقاءنا حقا ؟ وهل تظن انا نحيا بعدهم ونستطيع ان نعيش بدونهم حقا ؟ كلا ، إنما نفقد الاتصال بأشخاصهم التي تتحرك وتفكر كما نفكر ، وتحيا كما نحيا . نفقد العمل معهم ، ولكنا لا نفقد جوارهم ، والاتصال بنفوسهم .

ان الذي يدفن بعد الموت ويحتويه الثرى ليس شيئاً الى جانب هذا الشخص القوي الحي الذي تدفنه في قلبك ، وتحتفظ به في حياتك الداخلية الخاصة ، تناجيه ، وتفكر فيه ، وتقدم اليه من الوان المودة والتحيات من آن الى آن ما يلائم مكانته في نفسك ؛ نعم ليس هذا الجسم الذي يواريه التراب ، والذي يستحيل الى تراب — شيئاً الى هذه النفس التي تواريها نفسك ، والتي تحيا معك لا تفارقك او تفارقك الحياة .

لله قلوب الاصدقاء ونفوسهم ، فهي قبور حية ، ولكنها لا تحتوي الموتى ، وانما تحتوي نفوسا حية ، لها حسها وشعورها ، ولها عقلها وتفكيرها .

لقد فقدت فلاناً وفلاناً من الاصدقاء ، فأقسم ما فقدت منهم الا اشخاصهم المادية ، ولكن نفوسهم وصورهم المعنوية ملازمة ، اراهـا في كل يوم يقظان ونائما ، واناجيها في كل يوم . واذا كان للموت أثر في هذه النفوس والصور فإنما هو تصفيتها وتخليصها من اعراض الحياة الدنيا وادرانها ، وتحويلها الى صور مطهرة نقية ، ليس فيها الا الخير والبر والمودة والوفاء :

الآن أستطيع في مشقة ان ألائم بين اسم ثروت ولفظ الموت، وان احقق في نفسي هذه الجملة « ألا ان ثروت قد مات». نعم لن القاه ولن اراه ولن اسمع له ولن اتحدث اليه ؛ لانه في نفسي، فهو معي ابداً ، وانا اسمع له ابدا ، واتحدث اليه ابدا ، ولا اجد الى الانصراف عن حديثه وحبه ومودته سبيلا .

وانا استطيع ان اصعد الى هذه السفينة التي اعرف انها تقل رفاته في شيء من الجزع وفي شيء من الغبطة ايضا ؛ فقد اتيح لي ان اشيع شخصه تشييعاً فيه بعض الطول ، وان اقطع معه من آماد الحياة مسافة غير قصيرة . اتيح لي ان اعبر البحر معه ، فانا جزع لاني لا استطيع ان اسمع صوته العذب ، ولا ان اعي كلامه العذب ، ولا ان اسيغ نفسه الحلوة ، ولا ان اتذوق اخلاقه الرضية ، وانا مع ذلك مغتبط لاني ارافق شخصه على كل حال ، ولاني احس ان هذه السفينة تصل بيني وبين ما بقي منه. غريب هذا الشعور بالجزع تخالطه الغبطة ، وباليأس تمازجه الطمأنينة ! غريب هذا الشعور الذي لم يفارقني طوال ايام السفينة ولياليها ! وكثيرة هذه الخواطر التي كانت تزدحم على نفسي في النهار والليل فتقطع الصلة بيني وبين الحياة ومن فيها اكثر الوقت .

نعم ، لقد مات ثروت ... والناس يقولون ان موته كارثة آلمت مصر كثيراً فأفقدتها كثيراً . وانا اعلم ذلك واقدره .

والناس يتحدثون فيما عمل ثروت لمصر . وانا اعرف ذلك واقدره .

والناس يتحدثون ايضاً في مصير مصر بعد ثروت ، وانا افكر في ذلك احياناً واجزع له. ولكني أثِر مسرف في الاثرة. وانا ازعم ان الاصدقاء جميعاً اثرون مسرفون في الاثرة . فانا لا افكر كثيراً في ثروت السياسي ، ولا في ثروت الزعيم ، وانما افكر دائماً في ثروت الصديق . فخسارة الاصدقاء لا سبيل الى تعويضها ، وفقد الاصدقاء لا عزاء عنه ، بينما خسارة السياسيين والزعماء شيء مهما يكن شديد الوقع فالى العزاء عنه سبيل. تعيش الامم قبل الزعماء ، وتعيش الامم بعد الزعماء . وقلما تقدر الامم زعماءها ، وقلما تعرف لهم حقهم عليها. وهل قدرت مصر ثروت حياً ؟ وهل عرفت مصر لثروت حقه حياً ؟ ولكن الصديق لا يستطيع ان يعيش حقاً إذا فقد الصديق . هو لا يفقد منفعة ولا غرضاً من اغراض الحياة ، وانما يفقد جزءاً من نفسه وقطعة من قلبه .

انا ارثي لمصر من رزئها في ثروت، ولكني اشد رثاء لنفسي ولأصدقاء ثروت من رزئنا فيه . وهل مات ثروت حقاً ؟ هل فقدته مصر ؟ كلا . فلن تراه يذهب ويجيء ، ولن تراه يدافع الانجليز عن حقها ، ولن تراه يذود عن حريتها الداخلية، ولكن ثروت كغيره من عظماء الرجال حقاً لم يمت ولا يمكن ان يموت، لا لانه آثاره باقية خالدة ، بل لانه كان صاحب رأي وفكرة ، ولانه صاحب نفس وروح ، ولانه استطاع ان يقنع برأيه وفكرته قوماً هم خلفاؤه، واستطاع ان يبث فيهم نفسه وروحه، فسيعملون كما كان يعمل، وسيجدّون كما كان يجدّ، وسيضحون كما كان

يضحي ، وسيشقون كما كان يشقى ،وسيجزون على حسن البلاء بالعقوق ، كما كان يجزى على حسن البلاء بالعقوق ، وسيتمون الاستقلال الذي كسبه ثروت ، وسيثبتون الدستور الذي وضعه ثروت .

فثروت لم يمت ، وثروت لا يمكن ان يموت اذا نظرت اليه من حيث هو سياسي ، ومن حيث هو زعيم. ولكن اسرة ثروت واصدقاء ثروت هم الذين فقدوه ، وهم احق الناس بالرثاء ، وهم الذين لن يجدوا الى العزاء عنه سبيلا ؛ في نفوسهم صورته المطهرة ماثلة قوية ، تلازمهم ولا تفارقهم ، ولكنها صورته وليست شخصه . في قلوبهم ذكراه قوية حلوة شديدة الاثر متمكنة في مكانها ، ولكنها الذكرى ليس غير .

سيسمعون صوته ، ولكن في نفوسهم . سيرون شخصه ، ولكن في نفوسهم . سيتحدثون اليه . سيحاورونه ، ولكن في نفوسهم .

في هذا بعض العزاء ، ولكن هذا ليس كل شيء . لله ابن ثروت ، يتردد في السفينة بين امه البائسة قد تفطر قلبها وتصدعت نفسها ، وبين مواطنيه المكتئبين لا يعرفون كيف يلقونه ، ولا يعرفون كيف يهونون عليه الخطب ؛ لانهم لا يعرفون كيف يهونون الخطب على انفسهم .

وهو بين تلك وهؤلاء فرق النفس ، مفطور القلب معقود اللسان ، لا يأنس الى شيء ، ولا يأنس اليه شيء .

ولله زوج ثروت ، سجينة في غرفتها على السفينة ، ومعها

رفيقتها البرة ، لا تستطيع لها تسلية ولا تعزية ، منحدرة الدمع حتى لا تجد في عينيها دمعاً ، مؤرقة الليل لا تأوي الى مضجع ، منغصة النهار لا تطمئن الى شيء ولا الى احد .

ولله اصدقاء ثروت في السفينة ، قد عجزوا عن كل شيء حتى عن تعزية انفسهم ، وهم يذهبون ويجيئون بين جماعات المسافرين الذين لا يعرفون ان جلال الموت يرفرف على هذه السفينة ، فهم فيما هم فيه من لهو ولعب ، واغتباط بالحياة وابتسام لها ، واعجاب بالطبيعة ، واستماع للموسيقى ، وفي ضروب السمر والوان المجون . واصدقاء ثروت يرون هذا ويتمثلون الحياة كما هي ، لاهية عمن يقبل عليها او ينصرف عنها ، ماضية في طريقها ، لا تحفل بهذا ولا بذاك ، فلا تزيدهم هذه العبرة الا زهدا في الحياة وازدراء لها ، ولكنهم على هذا ضجرون محنقون ، يودون لو استطاعوا ان يسكتوا انغام هذه الموسيقى ، وان يفرضوا على الناس الهدوء والرفق ، في حركاتهم واحاديثهم ، حتى لا يحسوا الا جلال الموت على السفينة ، وجلال البحر من حولها .

والسفينة تمضي وهذه الخواطر تزدحم في نفسي . ونحن ندنو من مصر ، ونحن نتحدث الى انفسنا عما اعدت مصر لاستقبال ثروت وقد تركها حيا قوياً نشيطاً فعاد اليها جثة هامدة ...

لله اسرة ثروت حين رست السفينة ، وحين صعدت هي الى هذه السفينة مضناة مخلوعة الأفئدة ، مفرقة بين رفات من مات

وبين هذه الزوج الثكلى .

نعم ، ولله اهل السفينة جميعاً حين عرفوا من الامر ما لم يكونوا يعرفون ، وحين ازدحموا على ظهر السفينة ينظرون في دهش وحزن ، وان منهم لمن يأسف على ابتسامة ، وان منهم لمن يلوم نفسه لانه استمتع بالحياة والموتُ مرفرفٌ على السفينة ، وفي السفينة اشقياء بالحياة . وانهم جميعاً لينظرون وقد اخذتهم الهيبة ، وتسلطت على نفوسهم رهبة الموت ومقام الميت .

ولله هذه الطفلة لم تعد العاشرة من عمرهــا ، وقد نظرت فرأت نعش ثروت محمولا يهبط من السفينة ؛ فأجهشت بالبكاء دون ان تعرف لم تبكي ومن تبكي ؟ .

ولله امها ومسافرة اخرى اذ تنصرفان اليها تهدئان من روعها ، وتلهيانها عن ان تتبع هذا المنظر المؤلم .

ثم لله مصر كلها ، اذ تستقبل عظيمها لا لتحتفــل به ، ولا لتلجأ إليه ، ولا لتتخذه رداء تتقي به الشر والكيد ، ولكن لتشيعه الى حيث اراد الله ان يستقر الى آخر الدهر .

٢٠

وها نحن اولاء يا بني قد أبنا الى مصر ، واستقر بنا المقام في منزلنا الصغير الهادىء من هليوبوليس ، فلم تكد تبلغ الدار حتى هششت لها ، واندفعت اليها فرحاً مرحاً ، يملؤك الجذل ، وتشرق في وجهك البهجة والسرور ، وتأبى ان تصعد معنا الى حيث تزيل عنك وعثاء هذا السفر الطويـــل حتى تدور في الحديقة دورة او دورتين ، لترى هل نما الشجر واورق ، وهل ازدهى الزهر وتألق منذ فارقت هذه الدار ، حتى اذا بلغت من ذلك ما تريد ، فوجدت شيئاً ، وفقدت اشيـــاء ، واحسست رضاً ، واحسست سخطاً — صعدت فلم تلتفت الينا ، ولم تسأل عما نحن فيه ، وانما اسرعت الى حجرتك لتريح هذا الدب الذي رافقك في رحلتك ، فعبر معك البحر ، وطوف معك في آفاق فرنسا ، وزار معك بلاد الانجليز ، وعاد معك الى مصر . وانت لا تشك في انه قد وجد من اللذة في هذه الرحلة مثل ما وجدت ، وفي انه قد سعد بما رأى من عيون وينابيع ، وبما زار من متاحف

وعمارات ، وشقي بهذا العناء الذي يلقاه المسافر اذا طـال به السفر والحت عليه آلامه . وانت اب رحيم شفيق تعرف منه الجهد ، وترى عليه علامات الاعياء،وتريد ان ترفق به وتريحه قبل ان ترفق بنفسك وتريحها .

اتذكر يوم ذهبنا الى فونتنبلو لنزور القصر وكنت قد اصطحبت دبك هذا ، فلما بلغنا المحطة تقدمت اليك امك في ان تدعه مع ما كان معنا من متاع ، حتى لا يشق عليك ، ولا يصرفك عن جمال القصر وما فيه ، فاذعنت كارهاً ، ولكنك اظهرت تجلداً واحتمالا لهذا الفراق ، حتى اذا مضينا وبعدنا عن المحطة اجهشت بالبكاء واغرقت فيه . فلما سألناك عما يبكيك اجبت ان الدب لن يرى القصر ،فعدنا ادراجنا وزار الدب معك هذا الاثر العظيم .

ها انت ذا قد اضجعته في سريرك ، واحطته بما يسع قلبك الصغير القوي من حب وبر وحنان ، ثم اقبلت علينا تشاركنا فيما نحن فيه من عمل وحديث .

انت راض عن هذه الرحلة، مغتبط بما لقيت فيها من خير ، وقد نسيت ما احتملت فيها من مشقة ، وستنسى مع الزمن ما سرك وارضاك كما نسيت الآن ما ساءك واحزنك . ذلك ان نفسك ستنمو ، وان صحفاً جديدة غنية شديدة الغنى ، مختلفة كثيرة الاختلاف — ستضاف الى هذه الصحف القليلة الساذجة، التي سطرتها الحياة في ضميرك النقي الطاهر .

سينسيك الصبا احداث الطفولة ، وسينسيك الشباب احداث

الصبا ، وسيلهيك جد الحياة عن عيث الشباب . وستحاول يومئذ كما نحاول نحن الآن ان تلتمس من نعيم حياتك الاولى ما يهون عليك احتمال حياة الرجال ، فتسعفك الذاكرة حيناً وتعجز عن اسعافك في اكثر الاحيان . هنالك خـــذ هذه الصحف التي اهديها اليك ، واقرأها وانظر فيها ، فستذكرك انك عـــبرت البحر وزرت باريس وفونتنبلو ، وطوفت في الالزاس ، واقمت في جيرارمير ، والتمست العيون والينابيع في جبـــال الفوج ، وزرت نيس واقمت فيها . وكم كنت احب ان تذكرك هـــذه الصحف انك عبرت المانش وزرت لوندرة ونعمت بالحياة في اكسفورد ، وان ابتهاجك بما رأيت في بلاد الانجليز لم يكن اقل من ابتهاجك بما رأيت في فرنسا . ولكنك ستعلم حين تقرأ هذه الفصول ان موت ثروت هو الذي حال بيني وبين تسجيل زيارتك هذه لبلاد الإنجليز . وكم كنت أحب ان تكون هذه الفصول كلها فرحاً ومرحـاً ، وابتهاجاً بالحياة وابتساماً لها ؛ لتكون صورة صادقة لنفسك الحلوة في السابعة من عمرك ، تنظر فيها اذا بلغت سن الجد والجهد والحزن ، فتجد فيها من الراحة ما يجد المسافر في الصحراء حين ينتهي به السفر الى واحة خضراء فيها شجر وماء ، وفيها ظل ظليل ونسيم حلو . ولكني يا بني لم استطع ان أصور نفسك ، وإنما صورت نفسي أنا ، وما هي بالشيء الذي يحسن ان يهدى ، وما هي بالشيء الذي يجد الناظر فيه راحـــة او نعيماً .

وانا على ذلك كله واثق بانك ستقرأ هذه الفصول يوم تستطيع

قراءتها ، وستحبها لاني واثق بأنك تحبني . اتذكر يوم كنا نعبث في جوارمير وكنت احدثك بحديث انكرته لغرابته واغراقه في الخيال ، فأبيت ان تصدقه او تطمئن اليه ، فالححت عليك في ذلك فلم يزدك الالحاح الا اغراقاً في الانكار ، وخاصمتك حينئذ ، واعلنت اليك اني لن اداعبك منذ اليوم ولن اتحدث اليك الا جاداً . وانت صلب الرأي كأبيك ، لا تذعن للوعيد ، ولا يخيفك النذير . فاعرضت عنك واعرضت عني ، وقضينا في ذلك يوما وبعض يوم ، لم اقل لك شيئا ولم تقل لي شيئا . ولكن اختك اقبلت محزونة فأنبأت امها بأنك ضيق بإعراضي عنك ، لا تنشط للعب لاني لا اداعبك ولا ادعوك باسمك الذي كنا نحب ان ندعوك به . فتوسطت حينئذ امك فاصلحت بيننا ، واعادت الى ثغرك الابتسام ، واعادتك الى ما كنت تحب من لعب ومرح .

سل امك يا بني فستنبئك بأني لم اكن اقل منك شقاء بهذا الاعراض ، وبأني كنت اشكو اليها بينما كنت تشكو انت الى اختك ، اتذكر هذه القصة ؟ انها تصور ما بينك وبيني من حب ، قد علمك ان تقبل مني كلما كنت اتحدث به اليك مما فيه من خيال وما فيه من احالة . لقد تعودت الا تراني الا باسماً لك ، ولكنك ستنمو وترى ان ابتسام الآباء لابنائهم الصغار كثيراً ما يخفي اكتئاباً وحزناً . وسترى في هذه الفصول نفسي يا بني فتعلم ان ما كنت امنحك من ابتسام ورضاً ، وما كنت آتي معك من ضروب اللعب والدعابة — لم يكن خالصاً كابتسامتك ورضاك ،

ولا صفواً كلعبك ودعابتك . وانما كان يخفي من ورائه حزناً واكتئاباً ما كان لك ان تراهما صبياً ، وما ينبغي لك ان تجهلهما رجلا.وما اسعد الاب حين يثق بان ابنه يحبه محزوناً مظلم النفس؛ كما يحبه مسروراً مشرق الفؤاد !!

هلم يا بني لنطوي الان حديث السفر والصيف ، ولنستقبل الخريف واحاديثه ، فان للخريف حديثاً آخر ، سيتحدث اليك عن المدرسة والأساتذة والرفاق ، وسيتحدث الى ابيك عن الجامعة والطلاب والزملاء والادب العربي القديم .

سبتمبر سنة ١٩٢٨

٠٧ – ١١ – ٢٩٤